422

HARLEQUIN

روايات أحلام

سامحني يا قلب

لوسي غوردون

www.elromancia.com
مرمورية

سامحني يا قلب

كانت آيفي وارتن أمرأة جريئة تتحدى التقاليد ولا تخشى أحداً ،ولكن شيئاً ما في شخصية المليونير جاستين واين يفقدها تعقلها .إنها لا تغضب عادةً .ولكنه يثير فيها الرغبة في أن تكيل له الضربات .وهذا لن يفيد أبداً إذا أرادت أن تساعد ابنه !

سرعان ما اكتشفت آيفي أن خلف تصرفات جاستين ماض أليم .ولا شيء يمكن أن تفعله سيساعد في التخفيف عن الأب والابن ،لا الغضب ،ولا النصائح ،ولا الاهتمام ... فهل يساعد الحب ؟

لبنان	2500ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	75ل.س	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	8جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

ISBN 978-9953-15-390-2

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية
محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بترخيص خطي من Harlequin Books S.A

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Books S.A

العلامة التجارية Harlequin وشعار Joey هما ملك شركة Harlequin Books S.A
وهما مستعملان هنا بترخيص منها

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص
حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
Wife and mother forever
First published in Great Britain 2005
Harlequin Mills & Boon Limited
© Lucy Gordon 2005
Translation © Dar El-Farasha - 2008
ISBN 978 - 9953 - 15 - 390 - 2

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: 8254/ 11 هاتف/ فاكس: 450950-1-961- بيروت - لبنان
Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا في بداية هذا القرن هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequin العالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة Harlequin هي رائدة الروايات الرومنسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيّقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص
أسرة أحلام

www.elromancia.com

لوسي غوردون

بدأت لوسي غوردون عملها في مضمار الكتابة، ككاتبة صحفية في عدة مجلات. أجرت مقابلات مع أكثر الرجال شهرة في العالم بمن فيهم «ورن بتي»، «ريتشرد تشامبرلين»، «روجر مور»، سير «أليك غينيس» وسير «جون غيلغاد». واختبرت في رحلة سفاري إلى إفريقيا، الحياة في العراء مع الأسود، كما عاشت مغامرات غريبة كثيرة شكلت خلفية غنية لرواياتها.

تزوجت من إيطالي التقته في عطلة كانت تقضيها في فنيسيا. عقدا خطبتهما بعد يومين على اللقاء وهما متزوجان منذ خمس وعشرين سنة. يقيمان الآن في «ميدلاندز» مع كلابهما الثلاثة.

نال كتابها His Brother's Child، جائزة الكتّاب الروائيين الأميركيين سنة ١٩٩٨، في فئة أفضل رواية عاطفية تقليدية

تمهيد

دقت الساعة الرابعة، وحان الوقت لبدء الاحتفال بعيد ميلاد السيدة رينوتشي. كانت سيارات الليموزين السوداء اللامعة تصعد التلة المؤدّية إلى فيلا رينوتشي التي تشرف على خليج نابولي.

كان الطعام معدّاً على شرفة الفيلا، حيث علت الطاولات أفضل أطباق المعكرونة الإيطالية والبطلينوس والفواكه من نتاج هذه الأرض البركانية الخصبة فضلاً عن أفخر أنواع العصائر. بدت الموائد أشبه بموائد ألف ليلة وليلة.

بدت السماء صافية، وقد انعكست زرقتها الداكنة على مياه الخليج المتلألئة تحت أشعة شمس بعد الظهر.

انضم طوني رينوتشي إلى زوجته التي وقفت على الشرفة تنظر إلى أسفل التلّة. قال وهو يضع ذراعه بلطف حول كتفيها: «إنه يوم مثالي، وكل شيء فيه كما ينبغي أن يكون».

إنه رجل قوي، ممتلىء الجسم، في الستينات، أشيب وذو وجه بشوش سريع الابتسام، وقد بدت عيناه حنونتين كحالهما دوماً حين ينظر إلى زوجته.

أما زوجته فهي الرابعة والخمسين من عمرها، لكنها تبدو كأنها في أواخر الأربعينيات، فوجهها لا يزال نضراً كوجه شابة فتية. كل ما فيها يوحي بالأناقة والرشاقة، كما أنها متزوجة من رجل غني يسرّه أن ينفق المال عليها. وعلى الرغم من بعض التجاعيد الخفيفة التي لا مفرّ منها، إلاّ أن وجهها لا يزال حسناً. لم يكن جميلاً بالمعنى الحرفي للكلمة فملامحها أقوى من أن توصف بهذا الوصف، إذ إن أنفه عريض بالنسبة إلى امرأة، وهو

www.elromancia.com

يطغى على ملامحها الأخرى، فيعكس شخصيتها القوية وقدرتها على اتخاذ القرارات. أما فمها فكبير وكريم، ترتسم عليه ابتسامة لطالما خلبت ألباب العديد من الرجال. ابتسمت هذه الابتسامة المذهلة لزوجها، فيما راحت أناملها تداعب الماسات التي تحيط بعنقها.

قالت: «وهديتك لي من أجل الهدايا، كما هو الحال في كل سنة».

قال بنعومة: «لكنها ليست الهدية التي ترغبين فيها فعلاً. أتظنين أنني لا أعرف هذا؟».

بدا كأن كلامه هذا هزّها بعض الشيء.

- هذا من الماضي يا عزيزي. لم أعد أفكر في المسألة كثيراً.

علم زوجها أنها لا تقول الحقيقة، فالسرّ الذي بقي بينهما على مدى ثلاثين عاماً من الزواج لا يزال حاضراً الآن كحاله دوماً، لكنها كعادتها لن تؤذي مشاعره بالاعتراف بأنّ سعادتها غير مكتملة. وهو كعادته أيضاً ادّعى أنه يصدقها.

برز رجلان من الباب الذي يفضي إلى الشرفة، وجدا في مكانهما لرؤية الزوجين متعانقين بحنان

ابتسم لوك، الرجل الأضخم بنية بين الاثنين لهذا المشهد، وقال بلطف: «ما من وقت لهذا، فسيصل ضيوفكما في أيّ لحظة».

قال طوني وعيناه تتأملان زوجته: «فليعودوا من حيث أتوا».

هزّ بريمو رأسه في حركة ساخرة، وهو شاب طويل القامة ذو عينين لامعتين ومظهر يوحي بجذوره النابوليتانية، وقال لأخيه: «لا سبيل إلى تغييرهما. ربما علينا أن نتركهما وشأنهما، ونصطحب الآخرين إلى ملهى ليلي».

قالت هوب وهي تتقدّم منه لتقبّل خده: «أنت تمضي الكثير من الوقت في الملاهي الليلية يا بنيّ».

فرد وهو يبتسم لها ابتسامة ملؤها التسلية: «يحتاج الرجل إلى بعض المتعة البريئة».

تراجعت إلى الخلف، وتأملته بحنان قائلة: «من الأفضل ألاّ أعطي رأيي

الآن ببراءتك المزعومة هذه».

- لا داعي لذلك. فلطالما أعطيت رأيك بصراحة. أنا قضية خاسرة، فتخلّي عني!.

- أنا لا أتخلى أبداً عن أيّ من أبنائي.

وصمتت لحظة قبل أن تضيف بنعومة: «عن أيّ منهم».

ساد صمت قصير تبادل خلاله بريمو ولوك النظرات وقد فهم كل منهما المعنى الخفي خلف كلمات أمهما هذه. قال بريمو بلطف: «يوماً ما يا أمي».

- نعم، في يوم ما. سيعود يوماً ما. أعرف هذا في أعماقي رغم أنني لا أعرف كيف ومتى سيحصل هذا، لكنني لن أموت قبل أن يعود إليّ، وأنا واثقة من ذلك.

كان طوني قد اقترب من زوجته بحيث سمع كلماتها الأخيرة، فقال بنعومة: «عزيزتي، ما من مكان للأفكار الحزينة اليوم».

- لكنني لست حزينة. أعلم أن ابني سيعثر عليّ يوماً ما، وهذا الأمر يسعدني. آه، ها أنتم قد وصلتم!

بابتسامة عريضة، ابتعدت عن أفراد عائلتها لترحب بأول الضيوف، وقد واكب القادمين الجدد إلى الشرفة ثلاثة شبان يظهر الشبه بينهم صلة القربى التي تربطهم. قال لها أطولهم قامة وهو يشير إلى الضيوف: «أمي، انظري من وصل».

إنه فرنشيسكو، الابن الذي قد يكون المفضّل عند أمه أو لا يكون. من المدهش أنّ كل واحد من أبنائها يظن أنه الوحيد الذي يملك مفتاح قلب أمه. أما الشابان الآخران فهما رودجيرو وكارلو، التوأمان اللذان رُزقت بهما من طوني، وهما الأصغر سناً بين إخوتهم رغم بلوغهم الثامنة والعشرين من العمر. أحد الشابين يشبه الآخر رغم أن الشبه بينهما لم يبلغ حدّ التطابق، وهما وسيمان للغاية، ويبدوان دوماً مستعدين لأيّ شيء، لا سيّما الحفلات. وهذه الحفلة ستكون أفضل الحفلات. وفيما راح ضوء النهار يذوي والشمس تنسكب في مياه الخليج، أضيئت الأنوار في ڤيلا رينوتشي،

www.elromancia.com

وبدأ الضيوف بالتوافد حاملين الهدايا لهوب رينوتشي بمناسبة عيد ميلادها الرابع والخمسين.

ضمت الحفلة كل من له شأن في نابولي وبعض الضيوف البارزين الذين أتوا خصيصاً من روما أو حتى من ميلانو، فعائلة رينوتشي هي واحدة من أشهر العائلات وأبرزها في إيطاليا، كما أنّ لها علاقات واسعة في عالمي الأعمال والسياسة.

محور العائلة امرأة إنكليزية، مرّ عليها حتى اليوم ثلاثون عاماً في إيطاليا. لكن ما من أحد كان ليحسبها غريبة فهي قلب الأسرة النابض، ليس بالنسبة إلى زوجها وحسب بل للرجال الخمسة الآخرين الذين يفاخرون بأنهم أبناؤها. في الواقع، ثلاثة منهم فقط ولدوا من رحمها، أما الاثنان الآخران فلا يترددان بأن يطالبا بها بشراسة كأم لهما.

هؤلاء الرجال الخمسة هم الأكثر وسامة في الحفل، فهم في أوج شبابهم. يتحركون برشاقة وأناقة وغطرسة غير متعمّدة. إنهم من أسرة رينوتشي، حتى إن أولئك الذين لا يحملون الاسم هم كذلك فعلاً.

أمضت هوب الأمسية تتنقل بين ضيوفها، وتتلقى الهدايا والتهاني بسحر كأنها ملكة متوّجة بين معجبيها. لكن ضيوفها لم يكونوا كلهم من المعجبين بها، ففي حين يتحدث البعض عن السحر والكرم، يتحدث البعض الآخر عن القسوة وعدم الرحمة، إلاّ أنّ الكل لبّى الدعوة حتى ألد أعدائها.

وأشار لوك إلى بريمو بأنّه من السهل معرفة الأعداء فهم الذين يحملون الهدايا الأغلى ثمناً، الذين يكيلون لها المديح والذين يتهافتون ليعبّروا عن مدى إعجابهم بالحفل.

أخيراً، وبعد أن رحل آخر الضيوف وبدأ العاملون بتنظيف الطاولات والشرفة، أصبح بإمكان الأسرة أن تسترخي فيمضي كل منهم ما تبقّى من الأمسية كما يحلو له.

قال بريمو: «هل أحضر لك ما تشربينه يا أمي؟ أمي!».

كانت هوب تتأمل البحر، وبالرغم من أن أناملها كانت تعبث بعقد الماس

الذي يحيط بعنقها إلاّ أنها بدت في عالم آخر، عالم معزول عما يحيط بها. تنهّد بريمو وقال: «أليس بإمكانها أن تنساه، اليوم على الأقل؟».

فردّ لوك: «من الصعب عليها أن تنساه اليوم أكثر من أي يوم آخر. لا تنسَ أنّ اليوم هو عيد ميلاده أيضاً».

سأل كارلو بشيء من الكآبة: «لِمَ لا يكفيها أبناؤها الخمسة؟».

فأجابه طوني بهدوء: «السبب بسيط، وهو أن لديها ستة أبناء لا خمسة، وهي لا تزال حزينة على ذاك الذي فقدته. إنها تعتقد بشدة بأنها ستجده يوماً ما».

سأله رودجيرو: «هل تظن أن أمنيتها هذه ستتحقق؟».

تنهد طوني تنهيدة يائسة، إذ لم يكن لديه جواب على مثل هذا السؤال.

www.elromancia.com

١ - رجل يحترم كلمته

تعالى صوت جرس المدرسة ما إن أنهت إيفي كلامها، فاندفع الأولاد الذين تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة إلى الخارج بغير انتظام، ليفرغ الصف في ثوانٍ. دلّكت إيفي عنقها، ومطته قليلاً لتخفف من الألم الذي شعرت به.

- أسبوع شاق؟ أليس كذلك؟

طرح عليها هذا السؤال صوت قادم من جهة الباب. إنها ديبرا، نائبة مدير المدرسة، والصديقة التي طلبت منها المساعدة لهذا الفصل. ردّت: «نعم، إيفي. لكنني لا أشتكي. إنهم أولاد طيّبون».

- هل لديك الوقت لتناول شراب؟

- بكل سرور.

لاحقاً، وبعد أن جلستا في مقهى يطلّ على النهر وراحتا تطعمان الطيور، قالت ديبرا بنبرة حاولت أن تجعلها تبدو عادية: «أنت حقاً تحبين هؤلاء الأولاد. أليس كذلك؟».

- بعضهم ذكي، لا سيّما مارك داين. إنه يتمتع بقدرة كبيرة ومميّزة على تعلّم اللغات، لكنني لم أره اليوم.

تأوهت ديبرا وقالت: «هذا يعني أنه فرّ مجدداً. تغيّبه عن المدرسة من دون إذن أصبح أمراً خطراً وجاداً».

- هل أخبرت والديه؟

- تكلّمت مع والده الذي قال بعبوس شديد إنه سيسوي المسألة، ويعالج الأمر.

كشّرت إيفي: «لا يعجبني المعنى الخفي الكامن خلف هذه الكلمات».

- لا! وأنا أيضاً لم يعجبني. هذا الرجل يتمتع بثقة بالنفس تفوق الحدّ. أظنه من رجال الصناعة الكبار، رجل عصامي بنى نفسه بنفسه، ويحب أن يبقي الأمور تحت سيطرته.

فقالت إيفي بنبرة متعاطفة: «بما في ذلك ابنه أليس كذلك؟».

أخذت ديبرا نفساً عميقاً قبل أن تقول بنبرة متمردة: «اسمعي يا إيفي، كان لديّ هدف آخر حين طلبت منك أن تخرجي معي لتناول شراب».

همست إيفي: «كنت أخشى هذا. لكن لا تفسدي اللحظة، بل استغليها واستمتعي بها».

واستندت إلى الخلف في المقعد الخشبي، فيما وضعت ساقاً فوق الأخرى بأناقة. أغمضت عينيها وأرجعت رأسها إلى الخلف، تاركة شمس بعد الظهر تسكب أشعتها على وجهها الذي ارتسمت عليه ابتسامة رضا. قد يظنها المرء فتى بسروالها الجينز وحذائها العالي الساقين وقامتها النحيلة وشعرها الداكن القصير، لكن ما كان ليخطر في باله أنها مدرّسة تبلغ من العمر تسعة وعشرون عاماً.

عادت ديبرا تحاول النبرة الصبورة الخاصة التي تعتمدها للتعامل مع صديقتها الغريبة الأطوار: «إيفي...».

- انسي الأمر يا ديب. أعرف ما ستقولينه، وأخشى أنّ الردّ هو لا. وعدتك بفصل واحد، لأن هذا كل ما أستطيع تقديمه. سينتهي الفصل قريباً، وعندئذ لن تريني مجدداً.

- لكن مدير المدرسة متفاجئ بالنجاح الذي أحرزته مع الطلاب، ويريدك حقاً أن تبقي.

- لا! لقد حللت محل مدرّسة اللغات إلى أن تلد، وبما أنها أنجبت صبياً الآن، فهذا يعني أنّ الوقت حان كي أرحل أنا بدوري.

- لكنها لا تريد أن تعود فعلاً إلى المدرسة، ولديّ تعليمات صارمة بأن أقنعك بالبقاء وبالعمل بدوام كامل.

ما كان من إيفي إلاّ أن تراجعت حتى طرف المقعد وهي تطلق صرخة صغيرة، وكأنها تقاوم روحاً شريرة. سألتها ديبرا: «ما بك؟».

اتهمتها إيفي بهياج: «قلت الكلمات المميتة».

قالت ديبرا وهي تحاول كبت ضحكتها: «كفي عن العبث».

لخّصت إيفي مبدأها في الحياة: «أنا لا أعمل قط بدوام كامل، وأنت تعلمين هذا. أحتاج إلى التغيير والتنويع».

- لكنك قلت إنك تحبين التعليم.

- أحب التعليم... بجرعات قليلة.

- نعم. هذه هي قصة حياتك، أليس كذلك؟ كل ما فيها بجرعات قليلة. عمل من هنا وآخر من هناك.

ابتسمت إيفي ابتسامة مُبهجة ومزعجة في آنٍ معاً: «تعنين أنني غير ناضجة، أليس كذلك؟ ففي مثل سني هذا، ينبغي أن أكون جاهزة للاستقرار في عمل يبدأ في التاسعة وينتهي في الخامسة ومع أطفال وزوج».

- أعتقد أنك أخطأت في الترتيب التسلسلي للأمور.

- أحقاً؟ حسناً! لا يهم. ما يهم هو أنك تعتقدين أنّ عليّ أن أبحث عن حياة مستقرة، تناسب امرأة تكاد تبلغ الثلاثين من عمرها. حسناً! تباً لذلك! أنا أعيش كيفما يحلو لي. فلِمَ لا يستطيع الناس تقبّل ذلك؟».

كشّرت ديبرا واعترفت: «لأننا كلنا غيورون. لقد تمكّنت من البقاء حرّة، من دون أيّ رهن أو قيود».

- ومن دون زوج.

تنهدت إيفي برضا وامتنان عميقين.

- على أيّ حال، أنت تستطيعين جذب الرجال حين يحلو لك. أفترض أنّ هذا الأمر لا بأس به.

قالت إيفي بتنهيدة سعيدة: «إنه جيد. أما في ما يتعلق بالرهن... ما أدفعه على هذه الدراجة النارية كالرهن تقريباً».

- نعم. لكنه خيارك، ولم يجبرك أحد عليه. أراهن على أنك لم تخضعي يوماً

لإرادة شخص آخر».

ضحكت إيفي: «بعضهم حاول إخضاعي من دون نجاح. لم يعاودوا الكرّة، لكنهم حاولوا».

راحت ديبرا تعدهم: «أليكس، دايفيد، مارتن...».

سألتها إيفي بنبرة بريئة: «ومن هم هؤلاء؟».

- عار عليك أن تنسي أصدقاءك بهذه السرعة!

- لم يكونوا أصدقاء بل سجّانين. حاولوا خداعي لسجني، أو تملّقي لسجني، أو جذبي لسجني. حتى إنّ أحدهم تجرأ على تحديد موعد الزفاف، ثم إطلاعي عليه.

- حسناً، لقد جعلته يندم على تصرّفه هذا، فالرجل المسكين كان يائساً لأنك تركته في حيرة مدّة طويلة.

- لم أتركه في حيرة بل حاولت أن أقطع علاقتي به بلطف. لم تكن علاقتنا ناجحة، كما لم أرغب قط في أن يقع في حبي. ظننت أننا نستمتع بصحبة بعضنا وحسب.

سألتها ديبرا بلهجة عابثة: «أهذا ما تفعلينه مع أندرو؟».

ردّت إيفي وهي تنظر إلى السماء: «أنا مولعة بأندرو فهو لطيف».

- لعلك تحبينه.

- أنا... أظن... نوعاً ما... ربما.

- أيّ امرأة غيرك كانت لتعتبره العريس المناسب، فهو يشغل منصباً جيداً، وذو طبيعة لطيفة وحس فكاهة.. كما أنك تحبينه، نوعاً ما، ربما.

تنهدت: «لكنه محاسب. أرقام، دفاتر حسابات، ضرائب...».

- هذه ليست جريمة.

قالت إيفي بنبرة تعكس كآبة شديدة: «إنه يؤمن بحسن إنجاز الأمور وبإتمامها كما ينبغي».

- أتعنين أنه دقيق في... كل شيء؟

رمقتها إيفي بنظرة معبّرة ولم تجب.

فقالت ديبرا بغضب: «آمل أن تقعي يوماً في حب رجل لا تستطيعين الحصول عليه».

فسألتها إيفي وقد فاجأها كلام صديقتها: «لماذا؟».

- سيكون في هذا تجربة جديدة لك.

ضحكت إيفي ضحكة سعيدة وواثقة، ضحكة شخص يفهم الحياة جيداً. هي تعمل على ترجمة الكتب من الفرنسية والإيطالية إلى الإنكليزية، وهي حرّة لتسافر، وهذا ما تفعله غالباً. كانت تحظى بالرفقة التي ترغب فيها من الرجال والنساء على حدّ سواء، فهي وخلافاً للعديد من النساء اللواتي يحرّكن مشاعر الحب في القلوب سريعاً، تتمتع بقدرة على إقامة علاقات صداقة وثيقة مع غيرها من النساء. لا يدرك المرء على الفور ما يجذبه إليها، فوجهها ساحر، لكنه ليس جميلاً جمالاً لافتاً، كما أنّ أنفها طويل وحاجبيها كثيفان، ما يضفي لمسة من الدراما على تلك الملامح المرحة. لعل السر يكمن في ضحكتها الرنانة التي تضيء وجهها وكأن الشمس قد أشرقت، وفي الجو العام الذي يحيط بها، وكأنها اكتشفت سراً يسعدها أن تطلع عليه أيّ شخص يمكن أن يشاركها الضحك.

قالت فجأة: «حان الوقت كي أرحل. يؤسفني ألاّ أتمكن من مساعدتك يا ديب».

سارتا معاً إلى موقف السيارات حيث استقلت ديبرا سيارتها العائلية، فيما قفزت إيفي على دراجتها النارية ووضعت الخوذة على رأسها. لوّحت لديبرا بيدها ومضت في طريقها.

إنها تستمتع بالقيادة في هذه الضاحية اللطيفة من ضواحي لندن، فهي تجد متعة في القيادة بسرعة، لكن التسكّع في الشوارع المكسوة بالأوراق ممتع أيضاً.

عندئذ، رأت مارك داين. عرفته من الخلف، ليس بسبب شعره البني الداكن المائل إلى الحمرة وحسب، بل بسبب طريقته في المشي برأسه المنحني بكآبة وهو حال أدركت الآن أنها غالباً ما رأته فيه من قبل.

مارك فتى ذكي، فطن. وهو غالباً ما يكون أول من يبادر إلى الإجابة عن أسئلتها، فتتزاحم الكلمات في فمه ليجيب بسرعة على حساب الدقة أحياناً. وغالباً ما تقول له، رغم أنّ تلهفه إلى الإجابة يسرّها: «خذ وقتك، وأجب بشكل صحيح».

لكن ما إن يخرج من الصف حتى يتقوقع على ذاته ليصبح فظاً أحياناً.

خطر لها الآن أنه ليس فظاً بل تعيساً. خففت من سرعتها ووضعت يدها على البوق. التفت الفتى بسرعة، وظهر عليه الغضب، لكنه عاد وابتسم عندما عرف الشخص صاحب الخوذة الذي توقّف إلى جانبه.

- مرحباً آنسة وارتون.

رفعت إيفي الخوذة وقالت: «مرحباً يا مارك. هل كان يومك حافلاً بالأعمال؟».

- نعم، كان...

وصمت بعد أن قرأ السخرية في عينيها، ثم أردف: «لم أحضر اليوم إلى المدرسة».

- ماذا فعلت... بالتحديد؟

هزّ كتفه وكأنه يقول إنه لا يتذكر أو حتى يأبه. قالت محاولة ألاّ تبدو كعجوز تؤنبه: «هذه ليست المرّة الأولى التي تتغيّب فيها عن المدرسة من دون إذن».

هزّ كتفيه مجدداً.

- أين تقطن؟

- في جادة هانفيلد.

- أنت بعيد بعض الشيء. كيف ستعود إلى منزلك؟

هزّ كتفيه مرّة أخرى.

- أتحتاج إلى من يقلّك؟

وأشارت إلى الدراجة النارية.

ابتسم مارك بابتهاج، وسألها: «أحقاً؟».

فقالت وهي تعطيه الخوذة: «طالما أنك تضع هذه».

وضع الخوذة بحماس ولهفة، وتحققت هي من أنه وضعها بشكل صحيح.

- لكن لم يعد لديك خوذة لك.

- لهذا السبب، سأقود ببطء وانتباه شديدين. والآن، اصعد خلفي، وتمسك بي جيداً.

عندما أحست به يمسك بها انطلقت في طريقها. بعد نصف ساعة وصلا إلى منزله، الواقع في شارع أنيق، تحف به الأشجار والمنازل المنفردة التي تعكس الثراء. مرّت عبر البوابة وقطعت الطريق الخاص وصولاً إلى الباب الأمامي، فيما راحت تحضّر في ذهنها ما ستقوله لوالدي مارك اللذين لا بد أنهما ينتظرانه في المنزل والقلق يتآكلهما. إلاّ أن المرأة التي فتحت الباب بدت أكبر سناً من أن تكون والدته، وقد اتسعت عيناها دهشة لرؤية وسيلة النقل التي أقلّته إلى البيت.

- ما هذا...؟

قال مارك وهو يقفز عن الدراجة: «مرحباً ليلي».

- ما معنى أن تأتي إلى البيت في مثل هذا الوقت المتأخر؟ وعلى هذا الشيء؟

ورمقت إيفي بنظرة حادة قبل أن تضيف: «ومن أنت؟».

قال مارك بسرعة: «إنها الآنسة وارتون وهي مدرّسة في مدرستي. آنسة وارتون هذه ليلي، مدبرة منزل أبي».

فقالت ليلي وهي تتأمل إيفي مشككة: «من الأفضل أن تدخلي. مارك، عشاؤك في المطبخ».

عندما أصبحت في الردهة، قالت إيفي بهدوء: «هل يمكنني أن أتحدث إلى والدي مارك؟».

انتظرت ليلي حتى غاب مارك عن الأنظار قبل أن تقول: «والدته متوفية، ولن يعود والده إلى المنزل إلاّ في وقت متأخر».

- أرغب في أن أنتظره.

- قد تنتظرين طويلاً. ما من موعد محدد لعودة السيد داين، هذا إذا ما عاد.

- ما هي طبيعة العمل الذي يتطلب هذا الوقت كله؟

- إنه يستولي...

- ماذا؟ ماذا يفعل؟

- إنه يعمل في مجال الصناعة. أو على الأصح، أنه يملك مصنعاً، ومصنعه هذا يملك مصانع أخرى، وإن كان لا يملكها فهو يتولى أمرها. إذا لم يتمكّن من الاستيلاء عليها، يعمل على تعطيلها عن العمل. هذه طريقته: نل منهم قبل أن ينالوا منك. لطالما سمعته يقول هذا.

فقالت إيفي متأملة: «إذاً، لهذا السبب هو غائب عن منزله. إذا كان مشغولاً بالاستيلاء على العالم، فلن يتبقى له الكثير من الوقت لأمور أخرى».

- هذا صحيح. أنا كل ما تبقى لهذا الصغير المسكين، وهذا ليس كافياً. أنا أبذل قصارى جهدي لكنني لست بديلاً عن الوالدين.

وكبحت نفسها مضيفة على عجل: «لا تخبري السيد داين أنني قلت لك هذا».

- يسرّني أنك أخبرتني، لكني لن أقول له. أعدك بهذا.

- سأعد لك بعض الشاي. غرفة الجلوس من هنا.

وفيما هي تنتظر جهوز الشاي، راحت إيفي تتأمل ما حولها، وتستوعب ما أخبرتها به ديبرا عن جاستين داين، وما أطلعتها عليه ليلي لتوها. إنه منزل رجل ثري، يمكنه أن يقدّم لابنه كل ما يرغب فيه باستثناء حرارة الترحيب. وشعرت أنّ ثمة ما هو مفقود في غرفة الجلوس، فأخذت تمعن النظر بحثاً عما يبرر هذا الشعور، لكن من دون جدوى. أعادت الكرة، متأملة كل رف وكل زاوية، بحثاً عن أي أثر لوالدة مارك. ما من صورة واحدة، سواء لها وحدها أو لها ولزوجها معاً؛ ما من صورة تذكر طفلها بها.

- من أنت بحق الجحيم؟

الصوت الحانق الذي تعالى من ناحية الباب جعلها تجفل. ما من لبس في هوية الرجل الذي يقف هناك. حتى لو لم تظهر الحمرة في الشعر البني صلة القربى التي تجمعه بالفتى، كانت إيفي لتعرف والد مارك من وصف ديبرا له. خطر لها أنه يجسد الكبرياء والثقة بالنفس، وأنه يريد أن تكون الأمور

كلها تحت السيطرة، وإذا لم تكن كذلك سيغضب ويزلزل الأرض. بدت ملامح وجهه النحيل قاسية، كما ظهرت في عينيه ضراوة رفضت إيفي أن تسمح لها بأن ترعبها.

قالت بنبرة هادئة: «أنا الآنسة وارتون. أعلّم اللغات في مدرسة مارك».

بدا الرجل مستغرباً: «أحقاً!».

فقالت بغيظ: «نعم».

- وترتدين ملابس كهذه؟

التفتت إيفي إلى ملابسها الملوّنة وهزّت كتفيها: «يُعرب الفعل بالطريقة نفسها يا سيد داين، مهما كان شكل الملابس التي أرتديها».

- تبدين كطالب مجنون.

قالت وهي تبتسم له أفضل ابتساماتها: «شكراً لك».

على الرغم من إدراكها أنه لا يقصد الإطراء بكلامه، لكنها لم تستطع أن تقاوم رغبتها في أن تثير غضبه. وأردفت: «يسرّني سماع مثل هذا الكلام في سني هذا».

- لم أكن أمتدحك.

- أنت تدهشني! افترضت أنك ملكت قلوب كل من عرفتهم في هذه الحياة بفضل دبلوماسيتك.

للحظة خاطفة، التمعت عيناه كأنه غير واثق مما عليه أن يقوله أو يفعله. هل تجرّأت على أن تسخر منه؟

سألها: «كم عمرك؟».

- أنا كبيرة بما يكفي كي لا أتقبّل فكرة أن يصرخ أحدهم في وجهي.

فقال بلهجة رجل يقدّم تنازلاً: «حسناً! حسناً! لعلني تسرّعت. سنبدأ من جديد».

حدّقت فيه مدهوشة. هذا الرجل يفتقر إلى المهارات الاجتماعية إلى درجة تكاد تكون مسلية. علّقت: «أظن أنّ هذا كل ما سأحصل عليه كاعتذار».

- لم أكن أنوي أو أقصد الاعتذار. لست معتاداً على أن أحضر إلى المنزل

لأجد نفسي خاضعاً لتحريات أشخاص غرباء».

- تحريات؟

- إنها كلمة مهذبة بدلاً من كلمة تجسّس. هل أنت هنا لتقدّمي تقريراً إلى مكتب الشؤون الاجتماعية؟ إذا كنت كذلك فقولي لهم إنّ ابني يعيش في منزل جيد، ولا يحتاج إلى تدخّل أيّ كان.

ردّت بهدوء: «لست واثقة من ذلك».

- ماذا؟

- وهل هذا منزل جيد؟ ما رأيته حتى الساعة يبدو لي كئيباً. إنه مريح بما يكفي، وقد كلّف الكثير من المال. لكن ما هو المال على أيّ حال؟

جاء دوره الآن ليشعر بالدهشة: «بعض الناس يظنون أن المال يساوي الكثير».

- ليس إذا لم يكن لديك سواه.

- وأنت تشعرين بأنّك مخولة للحكم على هذه المسألة. أليس كذلك؟

- لمَ لا؟ لقد تأملت الغرفة كلها على الأقل، في حين أنك حكمت عليّ بالنظر إلى ملابسي فقط.

فقال بنفاد صبر: «قلت لك إنني محوت ما مضى».

فقالت: «لكن لعلني لم أفعل، ولعلني أتمسك بحقي في الوصول إلى استنتاجات سريعة على غرارك».

علمت إيفي أنها تسير في منطقة خطرة، مليئة بالأفخاخ، لكن لم لا؟ عادة، هي لا تغضب بسرعة، لكن شيئاً ما في هذا الرجل يفقدها تعقّلها. في الواقع، ثمة ما يثير فيها الرغبة في أن تكيل له الضربات.

تنهد تنهيدة يائسة: «هذا الحديث لا يوصلنا إلى شيء. ماذا تفعلين في بيتي؟».

- لقد أوصلت مارك.

- على متن الآلة الموجودة في الخارج؟

ردّت: «لا. أنا قدت الدراجة، فيما ركض هو خلفي...».

www.elromancia.com

ثم كبحت نفسها، مفكرة أن الوقت غير ملائم للسخرية. ثم أردفت: «بالطبع، على متن دراجتي».

- هل وضع خوذة على رأسه؟

- نعم. أعطيته خوذتي.

- وبالتالي، أنت قدت من دون خوذة.

- نعم.

- وهذا مخالف للقانون.

- أدرك هذا، لكن ما الذي بإمكاني أن أفعله غير ذلك؟ أأتركه هناك؟ المهم هو أن رأسه كان في أمان.

- خلافاً لرأسك.

- أشكر لك اهتمامك.

- أنا مهتم بما كان ليحصل لابني لو أوقفتك الشرطة لخرقك القانون.

صرفت إيفي بأسنانها لئلا تجيب. إنه محق. هذا ليس عادلاً، لكنه لا يزال محقاً.

- ولمَ أوصلته إلى هنا على أيّ حال؟ هل تعيدين طلابك عادة إلى منازلهم بعد المدرسة؟

- أنا لم أعده من المدرسة. فهو لم يحضر اليوم إليها، وهذه ليست المرة الأولى.

- نعم. علمت بتصرّفه هذا من قبل.

- وماذا فعلت؟

- قصدت المدرسة وتحدّثت إلى نائبة المدير.

- لا. أقصد، ماذا فعلت عندما عدت إلى البيت؟ هل تحدّثت إلى مارك؟

- بالطبع فعلت. طلبت منه أن يحسن التصرّف وإلاّ فسيقع في ورطة. أظن أنه لم يستمع إلى ما قلته. حسناً! دعي الأمر لي! فسأعالجه.

حدّقت فيه مشدوهة قبل أن تسأل: «ماذا تعني بكلامك هذا؟».

- أعني أني سأحرص على أن يدرك تبعات وعصيان الأوامر مجدداً. ألم تأتي

إلى هنا لهذه الغاية؟».

- لا!

تكلّمت إيفي بصوت عالٍ، وشددت على كلمتها بحيث أدهشته.

وعادت تقول بحزم: «لم آتِ إلى هنا لهذه الغاية. هذا الفتى تعيس جداً، وأنا أحاول أن أكتشف سبب هذه التعاسة. لم يمض على وجودي هنا سوى خمس دقائق وها أنا بدأت أرى السبب. يا إلهي! يا له من مكان!».

سألها: «ما خطبه؟».

- إنه أشبه بمتحف. مليء بالكثير من الأغراض، لكنه فارغ في الواقع.

التفت من حوله يتأمل الأثاث الباهظ الثمن، ثم عاد ينظر إليها. بدا مربكاً ومشوّشاً كلياً.

- أترين هذا فارغاً؟

- إنه خالٍ من كل ما هو مهم: دفء ووالدان يرحبان به عند عودته.

قال جاستين داين بصوت قاس: «والدته متوفاة».

- إنها أكثر من ميتة يا سيد داين. إنها مفقودة. أين صورها؟

- لم أرَ جدوى من الاحتفاظ بها أو عرضها بعد ما فعلته.

- لكن ماذا عن مارك؟ ما الذي يرغب فيه؟

سمعته يأخذ نفساً حاداً قبل أن يقول: «لقد تجاوزت الحد، وبدأت تتدخلين في مسائل لا تعنيك».

ردت بحزم: «أنت مخطىء، فأنا مدرّسة مارك وأنا قلقة عليه. كل ما يتعلق به يهمني، لا سيّما عذابه».

- ماذا تعرفين عن عذابه؟

- فقط ما يحاول أن يقوله لي من دون أن يتكلم. أنا أعتمد عليك لتخبرني بما تبقّى. ماذا فعلت تحديداً لكي تسمح لنفسك بأن تمحوها من الوجود كلياً؟

لكنها رأت أنه لن يعطيها أيّ تفسير لتصرّفه، فهذا ما قرأته في وجهه. أدركت أن الغلطة غلطتها. ما الذي خطر لها لتفقد أعصابها بهذا الشكل؟ أخذت نفساً عميقاً وحاولت أن تهدأ. وبدا أنه يحاول بدوره أن يهدّىء

www.elromancia.com

أعصابه إذ ساد الصمت في الغرفة. وعندما استدارت، وجدت أنه يقف عند النافذة وقد أدار لها ظهره.

إنه رجل طويل القامة، تتجاوز قامته الست أقدام، وهو ذو بنية نحيلة وكتفين عريضتين، أبرزتهما الطريقة التي كان يقف بها. عندما ابتعد عن النافذة وبدأ يقطع الغرفة، أدهشها كم يبدو رشيقاً. رأت فيه القوة والعضلات والسلطة، لكنها لم تلاحظ أيّ أثر للطف أو اللين.

فكرت إيفي، أعان الله من يخطىء بحق هذا الرجل، فسيكون عديم الرحمة معه. ما هذه الحياة التي يعيشها هذا الطفل المسكين؟ وعندما تكلم، ترافقت كلماته مع تنهيدة نفاد صبر تشير إلى أنه يبذل قصارى جهده مع هذه المرأة الغريبة، إلاّ أنّ التعامل معها صعب. قال: «هذا الحديث لا يجدي نفعاً. حسناً! أفترض أنك حضرت إلى هنا عن حسن نيّة، ويسرّني أنني أصبحت على علم بسوء تصرّفه. لكن مهمتك انتهت، وأقترح أن تنهي المسألة عند هذا الحد».

فقدت إيفي أعصابها مجدداً. لم تستطع أن تحول دون ذلك، فهذا الرجل بارع في إثارة غيظها وغضبها.

- لم تنتهِ مهمتي. طالما أنك تتحدّث عن سوء تصرف مارك، فهو لم يسيء التصرف. والدته ميتة ووالده يحاول أن يمحوها من الوجود أصلاً. إنه بائس، تعيس، وحيد، مفجوع، وينبغي أن يحتلّ هذا كله الأولوية لديك. هل تفهمني؟

- والآن، اسمعي...

تناهى إليهما صوت قادم من ناحية الباب، فالتفتا ورأيا مارك. تساءلت منذ متى يقف هناك وماذا سمع من حديثهما.

- مرحباً يا أبي.

- مرحباً يا مارك. هل قدّم أحدكم الشاي للآنسة وارتون؟

- نعم. قامت ليلي بإعداد الشاي.

- إذاً، أقترح عليك أن تحمله إلى الأعلى لتري الآنسة وارتون غرفتك. لا بد

أنها ترغب في معرفة بعض اهتماماتك.

أدركت إيفي أنّ ما يرغب فيه فعلاً هو أن يرميها خارجاً، لكنه لن يفعل هذا أمام ابنه.

قالت: «شكراً. أقدّر لك مساعدتك».

وسرّها أن تلاحظ أنّ كلامها أزعجه.

تبيّن لها لاحقاً أنّ غرفة مارك تحوي كافة الألعاب والمعدات التي قد يرغب أيّ فتى في الحصول عليها، بما في ذلك جهاز موسيقى وجهاز كمبيوتر. أدركت أن من المفترض بها أن تظهر إعجابها بذلك، وتستنتج أن مارك يملك كل ما يحتاجه، إلاّ أن رعشة باردة سرت في جسمها بدلاً من ذلك. يا لها من مجموعة أدوات ميكانيكية تفتقر إلى لمسة إنسانية! هنا أيضاً لم ترَ أيّ صورة لوالدة الطفل.

سألت: «كم تبلغ قدرة هذا الكمبيوتر؟».

عمل مارك على تشغيل الكمبيوتر ليريها إياه. وكما توقّعت، كان الجهاز الذي هو تحفة فنيّة، موصولاً إلى شبكة إنترنت متطورة جداً.

أجابها مارك: «إنه الجيل الجديد، وهو لم يطرح في الأسواق بعد، لكن والدي أحضره لي، فهو يحرص دوماً على أن يكون جهازي متقدماً على أجهزة غيري من الأولاد».

علّقت إيفي بسخرية: «أراهن على أن إدارة المدرسة تحبه لهذا السبب».

- في آخر مدرسة تعلّمت فيها قالوا له إنه بخرّب تنظيم العمل بجعل أجهزتهم تبدو قديمة، فاستبدل كافة الأجهزة في المدرسة بأحدث الأجهزة في السوق. بعدئذ، قابل الناظر وقال له: «لم أعد أقوّض نظام العمل الآن» ثم غمزه بعينه.

- ماذا فعل؟ لا أصدق هذا يا مارك. لا أظن أنّ والدك يعرف كيف يغمز.

- يمكنه ذلك أحياناً. وهو يقول إنّ ثمة أمور يمكن لأيّ رجل أن يقوم بها إذا ما اضطر إلى ذلك.

إذاً، فالغمز هو طريقة جاستين داين في إضفاء بعض السحر على تصرفاته، وهو أمر يمكن للرجل أن يفعله إذا ما اضطر إلى ذلك، وإلاّ فهو مضيعة للوقت. شعرت بأنها بدأت تكتشف حقيقته الآن فغامرت بالقول: «وأراهن على أنه

www.elromancia.com

اشترى لك جهاز كمبيوتر جديداً أيضاً، أحدث من الأجهزة التي قدمها للمدرسة».

ابتسم مارك وأومأ بالإيجاب.

- ماذا تودّ أن تفعل بعد أن تتخرج من المدرسة يا مارك؟

- أودّ أن أدرس في مجال اللغات. والدي لا يحب هذا، لكن هذا ما أريده.

- لِمَ لا يحب والدك أن تدرس اللغات؟

- يقول إنها لا تدرّ المال.

وافقته الرأي بتكشيرة حزينة: «حسناً! هذا صحيح».

قال بحماس: «لكني لا آبه بذلك، فاللغات تجعلك تكتشفين أفكار الشعوب الأخرى وعقولهم، وتتعرفين إلى عوالم أخرى، فلا تشعرين بأنك عالقة في الشرك، و...».

هذا هو الفتى الذي عرفته في صفّها، حيث تتزاحم كلماته وتتداخل لفرط سعادته باكتشاف الشعلة المجيدة. وابتسمت له إيفي مشجّعة، فتابع يقول: «أحب اللغة الإيطالية. يوماً ما، سأسافر إلى إيطاليا... انتظري».

تعالى الطرق على الباب، مشيراً إلى وصول ليلي مع الشاي. وفيما نهض مارك ليفتح لها الباب، نظرت إيفي إلى الرف خلف كرسيها ورأت أنه مليء بالكتب، وهذا الأمر سرّها. التقطت أقرب الكتب إليها، وأجفلت حين سقطت صورة من بين صفحاته. التقطت الصورة عن الأرض، فرأت فيها شابة تحمل فتى صغيراً. إنه مارك حين كان صغيراً في السن. كانا ينظران إلى بعضهما البعض ويضحكان. إنها والدته!

شعرت بغصة في حلقها بسبب العاطفة التي تنضح من هذه الصورة. إذا ما أحب اثنان بعضهما يوماً فهما هذان الإثنان. لكنها ماتت، وها هو يعيش الآن مع والد قاسٍ في منزل يخفي كآبته خلف فخامته.

فجأة، لاحظت أن الصمت يلف المكان، فرفعت رأسها لتجد مارك يراقبها وقد شحب وجهه. قال: «آه! ها هي. خشيت أن أكون قد أضعتها».

ومدّ يده فأعادت إليه الصورة سائلة: «هل هذه...؟».

سارع يسألها بتهذيب يكاد يفوق الحدّ: «هل تودين أن أسكب لك بعض الشاي؟».

بدا وجهه جامداً وعنيداً كأنه يضع مسافة بينهما. وفي هذه اللحظة، بدا الشبه بينه وبين والده مذهلاً. قالت وقد أدركت أنّ عليها التراجع: «شكراً لك. نعم، أرغب في بعض الشاي».

وضع الصورة جانباً وسكب لها الشاي، ثم عاد يستكمل حديثهما السابق عن إيطاليا التي يبدو أنه قرأ الكثير عنها.

أخيراً قالت: «لديك القدرة على النجاح كعالم».

حذّرها قائلاً: «لا تدعي والدي يسمعك تقولين فهذا سيغضبه».

- نعم، أفترض ذلك. أظن أنّ عليك أن تصبح أكبر سناً قبل أن تقف في وجهه وتعارضه.

- غالباً ما يعجز الناس عن مواجهة أبي. فهو يسحقهم على الفور... باستثنائك أنت.

وتنهّد تنهيدة رضا قبل أن يردف: «لقد سحقته!».

فقالت وهي تضحك: «الحياة أكثر من مجرد «من يسحق من» يا مارك».

ولم تستطع أن تقاوم رغبتها في أن تضيف: «مهما كان رأي والدك».

فقال من دون اقتناع: «نعم.. حسناً! لكن الأمر يساعد، وأنت الوحيدة التي تمكّنت يوماً من سحق أبي».

- توقّف عن قول هذا. على أيّ حال، ماذا سمعت من الحديث؟.

- ما يكفي لأعلم أنك سحر...

فقالت بسرعة: «حسناً! حسناً!».

- أتمنى لو أنني أستطيع فعل ذلك.

قررت أن تعتمد الدبلوماسية فلا تجيب، بل قالت: «عليّ أن أرحل».

- ليتك لا ترحلين. يسرّني وجودك هنا.

- سأراك في المدرسة غداً. هذا...

وصمتت، ثم أضافت بنبرة عادية: «...إذا حضرت».

- سأحضر.
- ألن تغيب مجدداً من دون إذن؟
- لن أفعل. أعدك بذلك!
وتصافحا.

قال جاستين وهو يقف عند عتبة الباب: «هذا حسن، فأفضل الصفقات تكرّس بالمصافحة».

لم تلاحظ في صوته سوى الاستحسان الهادىء، ولم تستطع أن تكتشف إن كان قد سمع كلام ابنه. أكّدت له إيفي: «عقدنا اتفاقاً جيداً. وعدني مارك بالحضور إلى المدرسة يومياً، وبما أنني أعلم أنه رجل يحافظ على وعده، أعتبر هذه القضية منتهية».

طالبت عيناها جاستين بالتصرف بحكمة، واعتبار المسألة منتهية أيضاً من جهته، وظنت أنها لاحظت ومضة تفاجؤ في تعابير وجهه، لكنه اكتفى بالقول: «حسناً يا مارك! هلاّ رافقت ضيفتنا إلى الخارج؟ الوداع يا آنسة وارتون».

وأومأ برأسه قبل أن يبتعد ليحرمها بذلك من فرصة التحدّث إليه مجدداً. خطر لها أنّ هذا هو ما يريده بالضبط.

٢ - الدائرة السحرية

لم تعلّم إيفي مارك في اليوم التالي، لكنها رأته من بعيد، وتأكّدت من أنه في المدرسة. وفي الصباح التالي، كان في صفها هادئاً إنما منتبهاً، وفيما هو يغادر انتحت به جانباً، وسألته باختصار: «هل الأمور على ما يرام؟».

- نعم.
- ألم تواجه أيّ مشاكل مع والدك بعد رحيلي؟
- لم يأتِ على ذكر غيابي عن المدرسة من دون إذن، لكنه طرح الكثير من الأسئلة عنك.
- أيّ نوع من الأسئلة؟
- من أنت، وما الذي أعرفه عنك، وما الذي يجعلك مختلفة عن غيرك من المدرّسين.

ظهر في صوته شيء من الإثارة وهو يضيف: «قلت له إنك لا تختلفين عن الآخرين، فسألني: أتعني أنّ الكل يتجوّل على دراجات نارية؟».

حاولت إيفي أن تكبح رغبتها في الضحك لكنها فشلت في ذلك، فقالت بسرعة: «من الأفضل أن تذهب».

مرّت بقية الأسبوع من دون أحداث تذكر. وكان مارك يرتاد المدرسة يومياً كما وعدها، فأحست إيفي بالرضا لأنها قامت بواجبها على أكمل وجه. إلاّ أن حياتها الشخصية لم تكن في أحسن حال، إذ ازداد استياء أندرو حين شعر أنه لا يحظى بالأولوية في حياتها. كانت تعلم أنّ بإمكانها أن تنقذ العلاقة ببذل جهد كبير. لكن ماذا بعد ذلك؟ الزواج الذي لطالما تجنّبته؟ أتريد فعلاً أن تحاول؟ تمنّت لو أنها تجد أجوبة على تساؤلاتها هذه.

www.elromancia.com

سيصطحبها اندرو الليلة لتناول العشاء في الخارج، ما جعلها تتخلى عن سروال الجينز، لترتدي فستاناً أزرق أنيقاً، وتضع عقداً من الفضة. بقيت في المدرسة لساعات عدة بعد الدوام، تصحح الأوراق حتى اتصل بها أندرو. وكانت قد أنهت عملها لتوها عندما دخل جاستين داين إلى الصف. استطاعت أن تشعر بغضبه حتى قبل أن تراه. بدا أشبه ببركان يكاد ينفجر.

جاءت كلماته الأولى: «يا له من اتفاق!».

- عفواً؟

- لقد اتفقت مع ابني - هو فتى يحترم كلامه بحسب قولك - أن يتوقف عن التغيّب من دون إذن.

- وهذا ما فعله. حضر إلى المدرسة يومياً منذ أن اتفقنا، وقد رأيته بنفسي.

- اليوم؟

- اليوم أيضاً في الواقع قدّم ترجمة ممتازة وقد انتهيت لتوّي من تصحيحها ووضع علامة... ها هي.

وسحبت الدفتر وأرته إياه. عندئذ، سألها بنفاد صبر: «أين مارك الآن؟».

- ألم يعد إلى المنزل؟

- لا.

- لعله خرج مع بعض الأصدقاء!

- لا يسمح له بالخروج هكذا من دون إذن. ينبغي أن يُعلم ليلي أو يُعلمني مسبقاً.

سألته مذعورة: «هل تعني أنه يهيم على وجهه وحيداً؟».

- لا أعلم. ليتني أعلم! أين وجدته آخر مرة؟

حكّت رأسها: «أعرف المكان لكنني لم أقرأ اسم الشارع».

- حسناً! يمكنك أن تقوديني إلى هناك.

طريقته في إعطائها الأوامر جعلتها تصرف بأسنانها وتقول: «يبدو أنك لم تلاحظ أنّ لديّ موعد».

فسألها مستغرباً: «وكيف يمكنني أن ألاحظ؟».

ردّت إيفي وهي تشير إلى ثوبها وزينة وجهها: «لأنني أشبه بدمية».

صمتت للحظة قبل أن تضيف بتهوّر: «أنا لا أرتدي مثل هذه الملابس إلاّ إذا كنت مضطرة».

فجأة ارتسمت على شفتيه ابتسامة: «أصدقك».

- أنا واثقة من أنّ كلامي سيفاجئك يا سيد داين، لكن لديّ حياة خاصة. أنا لا أجلس هنا وحسب بانتظار أوامرك.

- إذاً، لن تساعديني؟

- لم أقل هذا، لكن كلمة «أرجوك» لا بأس بها.

- حسناً! أرجوك. والآن هلاّ انطلقنا؟

نظرت إلى ساعتها فرأت أن أندرو سيصل قريباً. خمّنت شعوره إذا ما ألغت الموعد، إلاّ أنها لم تستطع أن تمحو من ذهنها ذكرى وجه مارك غير السعيد وانحناءة كتفيه البائسة.

قالت: «حسناً! لكن ليس لديّ الكثير من الوقت، كما أنّ عليّ أن أجري اتصالاً أولاً».

طلبت رقم أندرو، وشعرت بالارتياح حين أجاب على الفور. قالت: «عزيزي، سأضطر للتأخر قليلاً، فهل يمكننا تأجيل الموعد ساعة؟».

سمعت تنهيدة: «حسناً! ساعة فقط».

كانت سيارة جاستين الفخمة تنتظر في باحة المدرسة. مرّ وقت طويل أثناء الرحلة لم ينطق خلاله أيّ منهما بكلمة. تذكرت إيفي ما قاله مارك عن أنّ أباه طرح الكثير من الأسئلة عنها، وقد ذكر لها بعض هذه الأسئلة، لكن كم من سؤال آخر تراه طرح؟

ألقت نظرة على جانب وجه جاستين فبدا لها جامداً وقاسياً. لولا ذلك لوصفته بالجذاب، بأنفه المحدد وذقنه الحازمة. إنه الرجل المناسب ليكتسبه المرء إلى جانبه في معركة ما، وإلاّ فليبقَ بعيداً عنه. أخيراً قالت: «أخبرني بكل ما حدث».

- اتصلت بالمنزل، وطلبت من ليلي أن أتحدث إلى مارك فقالت إنه غير

www.elromancia.com

موجود، وإنها تجهل أين هو. كما حصل في المرّة الماضية.

- عندئذٍ ألقيت اللوم عليّ على الفور.

- ظننت أنك قد تملكين فكرة عن مكانه..

قالت: «لا أعرف لما نسلك هذه الطريق مجدداً. أشك في أن يمر هنا مرّة ثانية».

- إلاّ إذا كان هناك ما يجذبه في المحيط. سينما.. متجر..

- إنه شارع تحف به الأشجار على غرار الشوارع الأخرى في المنطقة؟

لاحظت أن حذره ازداد فجأة وخفف سرعة السيارة وراح يتلفّت من حوله متأملاً الشوارع، فسألته: «ما الأمر؟».

قال: «أنا أعرف هذه المنطقة، فقد كنا نعيش هنا».

- متى؟

- منذ حوالي الثلاث سنوات. هل رأيته هنا؟

- في الشارع التالي.

انعطف إلى الشارع حيث رأت مارك يسير وحيداً، لكن - وكما خشيت - لم يرَ أيّ أثر له.

- أين كان منزلكم؟

قال بصوت مشدود: «على بعد خمس دقائق من هنا. المنعطف التالي ومن بعده الأول إلى اليمين».

التفت بالسيارة فيما هو يتكلم، فقالت إيفي بسرعة: «ها هو! في المقبرة».

وخطر لها أنّ أمه مدفونة هنا.

ركن جاستين السيارة قرب الرصيف، وترجّل منها، فأسرعت لتلحق به. وصعدا معاً الدرجات الحجرية القليلة التي توصل إلى المدافن.

شيء ما دفع الصبي للالتفات فيما هما يقتربان منه، ورأى إيفي أولاً، فأضاء وجهه، فخطا خطوة نحوها. قال جاستين: «مرحباً بنيّ».

كبح الولد نفسه قبل أن يلتفت بإذعان نحو والده وقد اختفى عن وجهه أيّ تعبير، وكان هذا كافياً كي يوقف جاستين ويمنعه من التقدّم. أطبقت إيفي يديها

بشدة، آملة ألاّ يعنّف ابنه بقسوة، إلاّ أنه اكتفى بالابتعاد وهو يهزّ كتفيه بحركة كانت لتوحي بالعجز لو صدرت عن شخص آخر غيره.

اغتنمت إيفي فرصتها، وتقدّمت من مارك لتتحدّث إليه بصوت خافت، بحيث لا يسمعها جاستين. قالت محاولة ألاّ تبدو كأنها توبّخه: «أتعلم؟ أنت لست عادلاً.. وعدتني بألاّ تغيب من دون إذن ومن دون أن تعلم أحداً».

فقال على الفور: «لكنني كنت في المدرسة».

- عدم التغيّب يعني أيضاً ألاّ تختفي بعد دوام المدرسة، وألاّ تضطرنا إلى البحث عنك، وألاّ تسبب لوالدك قلقاً شديداً.

خُيّل إليها أنها رأت ابتسامة عدم تصديق ترتسم على وجه الفتى.

- أحب أن أتواجد هنا.

- هل كنت هنا تلك الليلة حين التقيت بك؟

- نعم. إنه مكان جميل.

- أرني إياه.

أمسك بيدها، وقادها إلى داخل المقبرة حيث القبور الفيكتورية الطراز، وحيث أضفى العشب والأشجار سحراً على المكان. التفتت إيفي مرة إلى الخلف فرأت جاستين حيث تركاه، على مسافة منهما، يراقبهما بسكون وعزلة. تجولا لبعض الوقت قبل أن تسأله: «والدتك توفيت، أليس كذلك؟».

أومأ برأسه.

- وهل هي مدفونة هنا؟

هزّ مارك رأسه، بالنفي ثم قال: «لكن كان ينبغي أن تُدفن هنا».

تكلّم بصوت خافت وهادىء، بحيث تساءلت إذا ما كانت قد سمعته جيداً.

- ماذا تعني يا مارك؟

- لا شيء. أفترض أن من الأفضل أن نعود إلى أبي.

كان جاستين لا يزال واقفاً حيث تركاه، منتظراً عودتهما. شعرت إيفي للحظة بتردده، لكن لا بدّ أنها تتوهم ذلك وحسب. ما إن اقتربا منه حتى سأل

www.elromancia.com

جاستين مارك: «هل أنت مستعد للعودة إلى المنزل؟».

فالتفت مارك إلى إيفي سائلاً: «هل سترافقيننا؟».

- لا أستطيع. أنا مدعوة إلى العشاء الليلة، وقد تأخرت بما يكفي.

- أرجوك!

شعرت بجاستين الواقف إلى جانبها يتحوّل إلى كتلة من الحجر بانتظار ردها، فقالت: «حسناً! لكنني لن أبقى طويلاً».

ارتسمت على وجه مارك ابتسامة ارتياح فيما استرخى جاستين قليلاً، وقال باختصار مشيراً نحو السيارة: «هيا بنا».

أمسك مارك بيدها وكاد يجرها، وحرص على أن تصعد في المقعد الخلفي معه. أدار جاستين محرك السيارة، وانطلق من دون أن يرمقهما بنظرة واحدة. لم ينطق أيّ منهم بكلمة خلال الرحلة. بقي مارك ممسكاً بيدها وقد بدا سعيداً بوجودها معه. كانت إيفي سعيدة بمساعدته، إلاّ أن القلق أخذ يساورها. هذا الفتى بالكاد يعرفها، لكنه يتعلق بها كما لو أنها منقذته. لم تعرف ما الذي يريدها أن تنقذه منه، لكن النظرة التي ألقتها على وحدته ملأتها رعباً، وأنبأها شعور ما بأن الآتي أعظم.

فتحت لهم ليلي الباب الرئيسي، فقال مارك بسرعة: «الآنسة وارتون جائعة جداً».

فقالت ليلي قبل أن تختفي: «سأذهب لأحضر العشاء».

عطس مارك عطسة قوية، فقالت إيفي: «أرجو ألاّ تكون قد أصبت بالرشح».

ردّ سريعاً قبل أن يلحق بليلي: «أنا بخير».

همس جاستين: «أرجو أن تتمكّني من البقاء معنا حتى العشاء على الأقل».

- من الأفضل أن أجري اتصالاً هاتفياً.

بدا صوت أندرو حين أجاب معبّراً، إذ بدا فيه سخط وغضب أعلماها أنه توقّع منها هذا التصرّف. ناشدته قائلة: «لديّ حالة خاصة هنا لا يمكنني تركها».

- شخص آخر؟

- عزيزي، هذا ليس عادلاً.

أحست بجاستين يرمقها بنظرة سريعة فيما أردفت: «لم أشأ أن يحصل هذا...».

- أنت لا تتعمدين هذا قط، لكنها أمور تحدث لك وحسب. هل خطر لك يوماً يا إيفي أنّ حياتك مزدحمة جداً؟ ربما عليك أن تتخلي عن بعض الأمور، بدءاً بي أنا.

سألته مدهوشة: «أتعني أن ننهي علاقتنا؟».

- أليس هذا ما ستصل إليه عاجلاً أم آجلاً؟

قالت باهتياج شديد: «لا، لا، لا أريد هذا! أرجوك يا أندرو، هذا القرار أهم من أن نتخذه هكذا على عجل...».

- حسناً! لنؤجل المسألة لبعض الوقت حتى تتركيني معلّقاً كما يحلو لك.

سألته بنبرة ملؤها الأسى: «أهذا حقاً ما أفعله؟».

- لا أصدق أنك لم تلاحظي ذلك. هيا يا إيفي، تحلّي بالشجاعة. قولي إنك لا تهتمين لأمري...

- لكنني أهتم لأمرك. إنما الليلة... أرجوك كن صبوراً. سأتصل بك غداً، وقد نتفق على موعد ما...

- طبعاً حسناً! كما تشائين.

وأقفل الخط.

- أندرو... أندرو؟

حدّقت إيفي في الهاتف وهي تحاول أن تستوعب فكرة أنّ أندرو اللطيف الرقيق أقفل السماعة في وجهها.

سألها جاستين داين: «هل وقعت في مشكلة معه؟».

ردّت بانفعال: «بالكاد أستطيع أن ألومه. ألن تنزعج أنت لو كنت مكانه؟».

- على الأرجح. يبدو كأنه يعاني الأمرّين معك.

www.elromancia.com

فقالت: «ربما كنت لتقطع الاتصال قبل هذه المرحلة».

لكنه فاجأها حين رمقها بنظرة غريبة وقال: «ربما لا».

لم تكن واثقة مما عناه برده هذا، لكن ما من وقت تضيّعه الآن على مشاكلها الخاصة. ما يهم هو مارك. لم تنسَ كيف أشرق وجهه لرؤيتها أو كيف سارع للقول إنها جائعة كحجة لإبقائها هنا معه. وعاد جاستين يقول بنبرة رجل الأعمال: «حسناً! يحق لك أن تحصلي على تفسير لما يحصل. لذا، سأوضح لك الأمور».

- ليس الآن.

حملق فيها: «ماذا؟».

- ما يحتاجه مارك الآن هو أن نجلس جميعاً ونتناول العشاء وأن نتصرف بشكل ودود... أو على الأقل أن ندّعي ذلك. يمكن للشرح والتفسير أن يأتي لاحقاً. حينذاك، سأقول لك ما أود معرفته.

أدركت من تقطيبه أنه لم يعتد أن يعامله الناس بهذه الطريقة، ويبدو أنها تتمتع بموهبة قراءة أفكاره، إذ تمكّنت من متابعة محاولته قلب الموقف لصالحه حين قال: «حسناً! إذا كنت ستتناولين العشاء مع مارك فيمكنني أن أنهي بعض الأعمال».

فقالت بحزم: «ألا يمكنك تناول العشاء معنا؟ ألا تتناولان الطعام معاً غالباً؟».

- ليس دوماً. على أي حال، لديّ بعض الأعمال لأنهيها.

- بالطبع لديك، الأعمال أهم من غيرها، إلا أن الأهم هو أن تكون مع ابنك.

زمّ شفتيه قبل أن يقول: «آنسة وارتون، أنا ممتن للجهد الذي تبذلينه من أجل مارك، لكن القرار لا يعود إليك...».

- أنت مخطىء، فالقرار قراري فعلاً. دعني أوضح لك إلى أيّ حدّ هذا القرار يعود لي؛ إذا كنت قادرة على التخلّي عن مشاريعي الليلة لأبقى مع ابنك، فلا بد أنك قادر على ذلك أيضاً. فإما أن توافق على تناول العشاء معنا وإما أن

أغادر في الحال، ويمكنك أن تفسّر غيابي لمارك كما يحلو لك.

كلامها هذا جعله يغضب فعلاً: «لم أعتد أن يملي عليّ أحد أوامره، سواء في منزلي أو خارجه».

تحلت إيفي بالحكمة بحيث لم تجب، لكنها اتبعت غريزتها ورفعت عينيها إلى عينيه فقابل الغضب الغضب، وواجه التحدي التحدي. عاد مارك ليجدهما على هذه الحال. قال لوالده: «تقول ليلي إنها ستقدّم العشاء على الشرفة. فهل أعلمها أنك ستنضم إلينا؟».

ظنت للحظة أن جاستين سيرفض ويتركهما، لكنه ابتسم أخيراً لابنه وأجاب: «حسناً! هيا نتقدّمنا».

أمسك مارك بيد إيفي غريزياً، وجرّها إلى الشرفة المطلة على الحديقة. بدا المكان جميلاً بألواحه الحجرية الحمراء والحافة الخشبية، ومصمماً ليشعر المرء وكأنه في الريف. حيث تتوسط الشرفة طاولة خشبية أعدّت للعشاء.

كانت الوجبة ممتازة... سباغيتي معدّة بإتقان، سمك، وقهوة لذيذة.

قال جاستين بعد أن غادرت ليلي: «إذاً، قل لي: لِمَ اختفيت الليلة وأثرت قلق الجميع؟».

فقالت إيفي قبل أن يتمكّن الصبي من الرد: «لندع الأمر إلى وقت لاحق. مارك من النوع المفكّر، مثلي أنا. نحن نرغب أحياناً في أن نختلي بأنفسنا بعيداً عن الناس، وما من عيب في ذلك».

شرع جاستين يقول: «أنا...».

قاطعته إيفي: «قلت ما يكفي».

تكلّمت بخفة، محاولة إبقاء الجو العام ساراً، لكنها علمت أنّ جاستين فهم ما قصدته. قالت لمارك: «كنت أخبر والدك عن آخر فرض قدّمته لي. إنها ترجمة جيدة فعلاً».

والتفتت إلى جاستين مضيفة: «إنه أحد أفضل تلامذتي. يجب أن تفخر به».

قال جاستين: «إن كان يعمل بجدّ فأنا فخور به».

أرادت أن تصرخ به: حاول أن تبدو كأنك تعني ما تقوله. قل كلاماً لطيفاً

من دون أن تبدو بارداً، أو كأن كل كلمة ينبغي أن تُنتزع منك انتزاعاً.

لكنها بدلاً من ذلك قالت: «استناداً إلى أساتذته الدائمين، ثمة أمور تجعلك فخوراً به، فهم يقولون إن مارك هو دائماً أول من يتطوّع للمساعدة، وإنه يجيد العمل ضمن فريق».

بدا جاستين وكأنها أخذته على حين غرّة. وأدركت إيفي أنّ العمل ضمن فريق ليس على الأرجح من أولوياته، وتأكد ظنها حين علّق: «حسناً! أظن أنّ هذا مفيد أيضاً. ماذا تعنين بقولك أساتذته الدائمين؟ ألست مدرّسة دائمة».

- لا، لقد حللت محلّ مدرسة أخرى لفصل واحد فقط، بعدئذ سأعود إلى عملي الحقيقي وهو ترجمة الكتب.

بدت خيبة الأمل على وجه مارك: «ألن تبقي؟».

اعترفت قائلة: «أنا لا أبقى طويلاً في أيّ مكان. أحب أن أرحل إلى البعيد، فثمة أماكن جديدة نكتشفها. سأعود إلى إيطاليا قبل نهاية العام».

فسألها مستفسراً: «إلى أين؟».

- سأسافر في كافة أنحاء البلاد لأدرس اللهجات المختلفة.

- ظننت أنّ الجميع يتكلمون الإيطالية هناك.

- هذا صحيح، لكن لكل منطقة لهجتها التي تكاد تكون كلغة مختلفة.

- ماذا تعنين؟

- أعني أن الجملة نفسها تقال بطرق مختلفة، تختلف بحسب المنطقة التي تتواجد فيها، فما يقال في البندقية لا يُقال بالطريقة نفسها في نابولي مثلاً.

فقال مارك بحماسة: «هذا رائع! طرق مختلفة للتعبير عن شيء واحد».

وسأل جاستين: «لكن ما الجدوى من ذلك؟ لِمَ لا يتكلم الجميع الإيطالية وحسب؟».

شرحت له إيفي: «لأن اللهجة المحلية تنبثق من الناس، وهي جزء من تاريخهم ومن شخصيتهم. إنها إرثهم. ألا تأبه بإرثك؟».

ردّ فعله أذهلها، إذ بدا وجهه مقفلاً كالقبر كما خطر لها لاحقاً. وبعد لحظة صمت مطبق قال: «أظن أن اعتماد لغة واحدة أكثر فعالية».

وافقته الرأي: «هذا صحيح، لكن من يرغب في الفعالية طيلة الوقت؟ التعددية والتنوّع يضفيان المرح على الحياة أحياناً».

- لن ينجح أيّ عمل يدار استناداً إلى هذه النظرية.

فقالت محاولة أن تضفي بعض المرح على الجو: «لحسن الحظ أن الإيطاليين ليسوا مهووسين بالأعمال. إنهم شعب يحب المرح والحياة والموسيقى، وهذه الأمور مهمة أيضاً، فمن يرغب في أن يكون عملياً وفعّالاً طيلة الوقت؟».

ردّ ببساطة: «أنا».

تبادل مارك وإيفي النظرات، ورآهما جاستين لكنه لم يعلّق. سألها مارك بحزن: «هل سترسلين لي بطاقات بريدية من إيطاليا؟».

- سأرسل لك الكثير منها، ومن كافة المناطق.

بعدئذٍ انهال عليها بسيل من الأسئلة التي ردّت عليها بطيب خاطر. بدا جاستين مكتفياً بالجلوس والاستماع إليهما، ولم يتدخّل في حديثهما إلاّ حين قال: «خذ استراحة من الحديث يا مارك، وتناول الطعام».

جاءت نبرته لطيفة بما يكفي، وصمت مارك ليتناول القليل من الطعام. استغلت إيفي هذه الفرصة لتتأمل الحديقة، فرأت كلباً يتقدّم منهم وفي إثره خمسة جراء بدت في الأسبوع السادس من عمرها.

أخبرها مارك: «هذه سيندي، وهي كلبة ليلي. وذاك هانك، والد هذه الجراء».

ظهر كلب ضخم عند زاوية المنزل ترافقه ليلي حاملة قصعة كبيرة من الطعام وضعتها على الشرفة ثم عادت إلى المطبخ لتحمل قصعاً أخرى. تجمّعت العائلة حول عشائها تحت ناظري إيفي حيث راحت الجراء تتدافع بقوة وحيوية، وأنهت الكلاب الصغيرة طعامها بسرعة، ثم راحت تتلفت من حولها بحثاً عن المزيد. ويبدو أن سيندي كانت تدرك الخطر فسارعت إلى إفراغ قصعتها. أما هانك فبدا غير مدرك لما يدور حوله، إذ بقي بعض الطعام في قصعته التي تقدم منها أصغر الجراء بكل عزم. راح الكلب الضخم يزمجر بشكل مخيف، مبرزاً أنيابه الضخمة، لكن الجرو لم يتأثر بذلك وتابع تقدّمه

www.elromancia.com

نحو القصعة، فيما الوالد يزجر منذراً.

قالت إيفي وهي تهبّ واقفة: «أليس علينا أن ننقذ هذا المخلوق الصغير؟».

- لن يحصل أيّ شيء. هذا هو الحال دائماً.

عادت للجلوس رغماً عنها فيما الجرو يصل إلى القصعة ويقحم رأسه فيها، غير متأثر بزجرة أبيه. وفي الحال، توقفت الزجرة وراح هانك يتلفت من حوله مشوّشاً، كأنه يسأل ما الذي عليه أن يفعله الآن.

مظهر هذا الحيوان الضخم الذي بدا مرتبكاً إلى حدّ يثير الشفقة أدهش إيفي وأثار ضحكها.

قالت: «يا للكلب المسكين! خلف هذا التبجح كله يكمن قلب حنون. يا إلهي..!».

وعادت تضحك مجدداً.

قالت وهي تمدّ يدها: «تعال أيها الصغير».

تقدّم منها هانك على الفور، وراح ينظر إليها بصمت كأنه يسألها أن تتعاطف معه. وأضافت وهي تحيط وجهه بكفّيها: «أيها المسكين، بالكاد حصلت على طعام. هاك، لنرى إن كنت تحب السباغيتي. نعم. أنت تحبها، أليس كذلك؟».

راحت تلاعبه وتداعبه، فانضمت إليها ليلي ومارك في تسليتها تلك. رفعت ناظريها إلى جاستين، آملة أن يكون هو أيضاً يتسلى ويضحك، لكنه لم يكن كذلك. كان يحدّق فيها وقد ارتسم على وجهه تعبير اندهاش، كرجل ضربته الصاعقة. بعد ذلك تدخلت ليلي لتبعد كلابها عن الشرفة، فيما توجهت إيفي إلى الحمام لتغسل يديها، ثم عادت لتجد ليلي تقدّم الحلوى مع الكريما.

قال مارك: «تبدين جميلة جداً الليلة. أنت لا ترتدين مثل هذه الملابس عادةً».

فقالت: «كنت أنوي الخروج».

- أكان لديك موعد؟

- نعم.

- هل لديك صديق؟

ردّت ضاحكة: «نعم».

تمتم جاستين من بين أسنانه: «مارك!».

سألها مارك من دون أن يردعه تحذير والده: «هل سيغضب منك؟».

فأجابت بنبرة مرحة: «ما من شيء لا يمكنني مواجهته».

- أراهن على أنك تستطيعين مواجهة أيّ شخص. أراهن على أنك وبخته.

فأشارت: «لو فعلت هذا لفقدته كصديق منذ فترة طويلة».

- هل أنت مولعة به؟

- مارك!

هذه المرة غطى جاستين عينيه ولم يفضح صوته سوى إحراجه. وكادت إيفي تحبه لذلك. بعدئذٍ شعرت بجاستين يرفع يديه عن عينيه وينظر إليها، لكنها بقيت تركز انتباهها على مارك الذي تابع قائلاً: «هل هو مولع بك؟».

فأجابت بخفة: «لعله لن يبقى مولعاً بي بعد الطريقة التي تصرّفت فيها معه الليلة».

- لكن إن كان مولعاً بك حقاً...

عندئذ، تدخل جاستين قائلاً بحدة: «هذا يكفي يا مارك!».

لاحظت أنّ الفتى صمت على الفور وكأن ضوءاً ما انطفأ في داخله. فقالت: «صدقاً أنا لا أمانع، فنحن نمزح وحسب».

وابتسمت لمارك ابتسامة مطمئنة أتبعتها بغمزة واضحة. بعد لحظة، غمزها بدوره، ثم رمق والده بنظرة مترددة، كأنه قلق من رد فعله. تبعت إيفي نظرته فأذهلها تعبير وجه جاستين، لكن ذلك التعبير اختفى على الفور وافترضت أنها كانت مخطئة. بدا للحظة خاطفة شبه يائس، كطفل تم استثناءه من دائرة السخرية.

هذا سخيف! مهما كان هذا الرجل فظاً، إلاّ أنه ليس يائساً.

٣ . لن أقابله ثانية

بعد انتهائهم من تناول الطعام، جاءت ليلي لتقول إنّ جاستين مطلوب على الهاتف. افترضت إيفي أنه سيغيب لبعض الوقت، فوافقت على اقتراح مارك أن يصعدا إلى غرفته. دفعها دافع مفاجىء لطرح سؤال على ليلي، وجاءها الرد على شكل إيماءة إيجاب، فحملت جروين بين ذراعيها، وتبعت مارك إلى الأعلى.

بدا مارك الآن أكثر استرخاءً فراح يتحدّث عن الكلاب وعن التسلية التي يشعر بها وهو يلتقط لها الصور، فسألته إيفي على الفور: «هل يمكنني رؤيتها؟».

إنه بالطبع يملك أحدث أنواع آلات التصوير الرقمية، ويجيد استعمالها كخبير. تنهّدت إيفي: «أحسدك، أنا لا أحسن استخدام آلتي رغم أنها أبسط من آلتك».

فقال ببراءة: «الأمر سهل».

- نعم، لبعض الناس!

ضحك مارك قائلاً: «أبي لا يجيد استخدام هذه أيضاً، وهذا يغضبه جداً».

شغّل مارك جهاز الكمبيوتر ليستعرض أمامها صور الكلاب، التي يبدو أنه التقط العشرات منها يومياً، وبشكل يشبه الهوس، ما عزز شعور إيفي بأن هذا الفتى منطوٍ على ذاته أكثر مما ينبغي. سألته: «أليس لديك أيّ صور لأصدقائك؟».

هزّ كتفيه بانزعاج: «أنا لا أقيم هنا منذ مدة طويلة. انتقلنا عندما رحلت أمي. كما أنني بدّلت المدرسة».

- هل رحلت أمك؟

- نعم. رحلت، ولم تعد. لديّ المزيد من الصور هنا...

فتح ملفاً آخر من الصور فتركت الموضوع عند هذا الحد، ظناً منها أنها طريقته في التعبير عن وفاة والدته. استعرض أمامها الكثير من الصور بحيث وجدت صعوبة في التركيز على تفاصيل أيّ منها، إلاّ أن مجموعة منها لفتت انتباهها فجأة. كان مارك قد التقطها بسرعة صورة في الثانية فبدت كأنها فيلم ڤيديو.

التقط مارك صوراً لوالده حين اقترب منه أحد الجراء فأمره بالابتعاد. لم يتأثر المخلوق الصغير بل صعد إلى الأريكة ثم شق طريقه بعزم نحو المكتب. شعرت إيفي وكأن الأحداث تدور أمامها الآن، فوجدت نفسها تحبس أنفاسها بانتظار اللحظة التي يدفعه فيها جاستين بغضب. إلاّ أن هذا لم يحصل. وبدلاً من ذلك، رفع الجرو بإحدى يديه حتى أصبح قبالة وجهه وهو يرمقه بنظرة استسلام لطيفة. هذا اللطف في نظرته هو ما لفتها. بعدئذ، التفت بعد أن شعر على ما يبدو بوجود ابنه وآلة التصوير. أمسك بالأسير بيد ممدودة إلى الأمام مطالباً بإخراجه، والابتسامة تكاد ترتسم على وجهه.

بقيت للحظة تتأمل وجه جاستين. لا بد أنه يجذب النساء، لكن هذا لا ينطبق عليها لأنه ليس من النوع الذي يلفت نظرها، فهو يفتقر إلى الصبر، كما أنه شديد الثقة بنفسه، وغير مستعد للاستماع إلى الآخرين. كان بإمكانها أن تتخيّل نفسها وهي تتشاجر معه، لكنها لم تستطع أن تتخيّل لحظات حميمة أو رقيقة برفقته.

فجأة قال مارك: «هاي!».

التفتت إليه بابتسامة فيما سمعت صوت صوت آلة التصوير.

- نلت منك!

فقالت وهي تضحك: «أيها الوقح!».

لكنه التقط لها صورة جديدة، ثم قال وهو يفتح آلة التصوير ويخرج منها بطاقة صغيرة: «والآن، انظري».

وضع البطاقة في جهاز الكمبيوتر مباشرة، فظهرت صورتان لإيفي على

الشاشة.

همست: «هذا رائع، لمَ لا أنجح بهذا الشكل عندما أحاول أن أفعل ما فعلته؟».

اكتفى مارك بالابتسام، فقالت بحزن: «نعم، أعلم. ما يمكن لبعضنا أن يفعله قد يعجز عن فعله الآخرون. إنها صور جميلة يا مارك».

أخذ قرصاً صغيراً لتخزين المعلومات من الدرج، ووضعه في جهاز الكمبيوتر، ثم نسخ الصور عليه وسلّمها إياه، قائلاً: «ضعيه في جهازك عندما تعودين إلى المنزل».

- شكراً. سأعيده إليك في المدرسة.

لم يكن هذا هو المنحى الذي أرادته لحديثهما. كان عليها أن تسأله لما يستمر في الاختفاء لساعات وتحاول أن تفهمه. لكنها شعرت أن المفتاح اللازم لفهم تصرفاته يكمن في مكان آخر. هذا الاحساس الودود الذي يربط بينهما سيفيده أكثر من أيّ حديث. سألته بنبرة هادئة: «هل سيوبّخك والدك بسبب ما حصل الليلة؟ أتخيل أنّ الحياة ليست سهلة معه».

لم تتوقع ردّ مارك الذي قال: «إنه ليس سيئاً. غالباً ما يغضب، لكنه يعود فيندم لاحقاً».

قالت: «ينبغي ألاّ يغضب أبداً. ألا يرى أنك لست سعيداً؟».

فكّر في سؤالها وقد ارتسم على وجهه تعبير غريب، وأخيراً قال: «هو تعيس أيضاً».

- بسبب والدتك؟

- أظن ذلك. لكن... ثمة أمور عديدة أخرى لا يمكنه التحدّث عنها. سمعته مرة يتشاجر مع أمي... كانا يقولان كلاماً رهيباً... قالت إنّ في داخله سواداً ما، وسألته لما لا يمكنه التحدّث عنه؟ لكنه قال إنّ الحديث لن يغيّر شيئاً، وتركها. كنت أراقبهما من الأعلى ورأيت وجهه. ظننت أنه سيبدو غاضباً لكنه لم يكن كذلك، بل بدا حزيناً جداً.

- هل يعلم أنك رأيته؟

هزّ مارك رأسه نفياً ثم قال: «كان ليكره ذلك، فهو لا يحب أن يكتشف الناس حقيقة مشاعره».

وصمت للحظة قبل أن يقول بشكل غير متوقّع: «أتمنى دوماً لو أنني أستطيع أن أساعده».

رمقته بنظرة متفاجئة، وسألته: «أليس من المفترض أن يساعدك هو؟».

- نحن نساعد بعضنا البعض. حسناً! هذا ما أتمناه. أريد أن أكون... في الواقع... ليتني فقط...

ارتخت كتفاه، ورأت إيفي الدموع تلتمع على خدّيه، فتخلّت عن الكلام وأخذته في أحضانها. قال وهو ينشج: «أنا آسف!».

- لا بأس. إن كنت حزيناً فعليك أن تبكي، وأن تخبر أحدهم.

فعاد يقول والدموع تنهمر على وجنتيه: «ما من أحد. ما من أحد يفهمني».

عندئذ، فعلت إيفي الشيء الوحيد الذي يمكنها فعله... احتضنته بشدة وراحت تؤرجحه بين ذراعيها في محاولة منها لتهدئته.

تناهى إلى سمعها صوت جعلها ترفع بصرها لترى جاستين يقف في الباب. وقف جامداً كأن الذهول منعه من الحراك، ما ذكّرها بالطريقة التي كان ينظر بها إليها أثناء وجودهم على الشرفة. هزّت رأسها بهدوء، فتراجع وانسحب من دون أن ينطق بكلمة.

بدا مارك غير مدرك لما يدور من حوله، لكنه حرر نفسه واستقام، ماسحاً عينيه وراسماً على شفتيه ابتسامة. قال مجدداً: «أنا آسف».

- لا بأس.

بدا جلياً أنه يشعر بالاحراج وكأن استعراض مشاعره هذا أمر لا يليق برجل.

يا إلهي! إنه في الثانية عشرة من عمره فقط.

قالت: «لقد تأخر الوقت فلِمَ لا تخلد إلى النوم؟».

- هل ستصعدين مجدداً، وتتمنين لي ليلة سعيدة قبل أن تغادري؟

- نعم. أعدك بذلك.

عانقته مجدداً قبل أن تنزل إلى الأسفل والأفكار تتزاحم في رأسها. عبر الباب المفتوح للغرفة المواجهة للسلالم رأت جاستين فدخلت. سألها على الفور: «هل هو بخير؟».

- ليس تماماً. لكنه هدأ، وسيخلد إلى النوم. وعدته بأن أتمنى له ليلة سعيدة قبل أن أرحل، لكنني أظنّ أن عليك أن تصعد لتراه الآن.

قال جاستين بسأم: «ما من فائدة. لقد حصل هذا من قبل... سيرفض التحدّث إليّ، فهو يكرهني».

ردت على الفور: «إنه لا يكرهك».

رمقها بنظرة حادة: «هل أنت واثقة؟ ماذا قال لك؟».

- لا أستطيع أن أخبرك ما قاله، فهذا سرّ بيني وبينه...

فقال بنفاد صبر: «هذا هراء. أنا والده...».

- وأنا الشخص الذي اضطررت للاستعانة به لمساعدتك. أنا الشخص الذي يتحدّث إليه ابنك، رغم أنه لم يقل الكثير. اعلم أنه لا يكرهك، بل على العكس. لكنني لن أخون ثقته. أرجوك، افهم ما أقوله: لن أخون ثقته وهذا نهائي.

- تباً لقرارك هذا! ستخبرينني.

- حسناً! لن أفعل، وما عليك إلاّ أن تطردني!

- لا تدفعيني إلى ذلك.

لم تجبه بل اكتفت بطلب رقم من هاتفها الخلوي: «أندرو؟».

أطبقت يد جاستين على يدها بشدة آلمتها: «من الأفضل أن تبقي».

فقالت وهي تحرر يدها من قبضته: «أحقاً؟ يسرّني أن تتخذ قراراً بهذا الشأن. لا يمكنني أن أحتمل الرجل المتردد».

أخذ نفساً عميقاً: «لا بدّ أن أندرو يتساءل الآن عما حصل. من الأفضل أن تعاودي الاتصال به».

- ما من داعٍ لذلك. فأنا لم أتصل به أصلاً.

- أكنت تلاعبينني؟

- لا، كنت أحذرك من استفزازي. سأساعدك بقدر ما أستطيع، من أجل ذاك الفتى المسكين، لكنني سأفعل هذا بشروطي أنا، لأنها الوحيدة التي أخضع لها.

فقال لها مكشراً: «هذا هي حالي أنا أيضاً».

- إذاً، على أحدنا أن يتنازل ويستسلم.

أدركت إيفي الشوط الذي قطعته في وقت قصير جداً. ما إن تخشى مواجهة جاستين حتى يرتد ذلك على مارك. أعلمتها غرائزها أنه لا يحترم سوى أولئك الذي يجرؤون على مواجهته. الإذعان يعادل الكارثة. كما أنها لا تذعن أبداً، فهذا ليس من شيمها.

شعرت من الصمت العاصف أنه يقوّم خياراته، مدركاً أنها محدودة، لكن من دون أن يعرف كيف يعترف بذلك.

- ألا تظن أنّ عليك أن تخبرني بما يجري حقاً؟ لمَ قصد مارك تلك المقبرة؟ قلت إنّ والدته توفيت، فخطر لي أنها مدفونة هناك، لكنه نفى ذلك.

- لا، لم تُدفن هناك. هل قال أيّ شيء آخر؟ أم أنه لا يمكنك أن تخبريني؟

- قال إنه كان يفترض بها أن تُدفن هناك.

قال بصوت خافت: «اللعنة!».

- ماذا عنى بكلامه هذا؟

- تركتنا زوجتي ورحلت منذ سنتين. كان في حياتها رجل آخر، فرحلت لتعيش معه في سويسرا.

سألته إيفي مشدوهة: «ألم تأخذ ابنها معها؟ أم أنك منعتها من ذلك؟».

- لم أكن لأمنعها لو أرادت ذلك، لكني لا أظن أنّ هذه الفكرة خطرت لها حتى.

فركت إيفي عينيها غير مصدّقة، وقالت بذهول: «لا أفهم كيف يمكن لأم أن تفعل هذا... التخلّي عن طفل لا حول له ولا قوّة...».

علّق جاستين بكآبة: «إنها الجريمة الكبرى، فهذا مغاير للطبيعة، ولا يمكن الصفح عنه...».

www.elromancia.com

وصمت فيما حملقت فيه إيفي وقد أثارت انتباهها نبرة في صوته تجاوزت حدّ الغضب. إنها الكراهية!

تنهّدت إيفي: «الفتى المسكين. هل بقيت على اتصال به؟».

- كانت تكتب إليه، وتتصل به أحياناً. كما كانت ترسل له الهدايا في عيد الميلاد وفي أعياد ميلاده. لكنها لم تدعه لزيارتها، فصديقها الجديد لم يرغب في وجوده، وهو أهم بكثير من ابنها بالنسبة إليها.

وأحست مجدداً بتلك النبرة الحادة في صوته، حدّة هي أبعد من الغضب وأقرب إلى الألم. همست: «لا بدّ أن الأمر دمّره. كيف واجه المسألة؟».

ردّ جاستين بشكل غير متوقّع: «إنه قوي وشجاع. وهو يعرف الآن حقيقة العالم الذي نعيش فيه».

فقالت إيفي بسرعة: «إنه صغير جداً ليرى هذا الجانب من العالم».

عندئذ، ضحك ضحكة لا تتضمن أيّ مرح، قبل أن يقول: «وهل من سن مناسبة ليتعلم الطفل أنّ أمه لا ترغب فيه؟».

وافقته الرأي: «لا بالطبع لا».

- يبقى المرء صغيراً إلى أن يواجه مثل هذا الموقف مهما كان عمره، لكن هذا يحدث عندما يحدث، في سن العاشرة، التاسعة... السابعة.

تغير صوته عندما قال «السابعة» ما جعلها تلتفت إليه، لكن بدا كأنه لا يلاحظ وجودها، أو كأنه يتحدث إلى نفسه: «عندئذ، يصبح العالم بأكمله غير حقيقي، لأنّ هذا لا يمكن أن يحدث لكنه حدث. ويفقد الطفل سنده ومرجعه ويغرق في الضياع. ويصبح الإنكار ملجأ في غياب أيّ خيار آخر».

- نعم، لا بدّ أنّ هذا ما يحصل.

فقال بصوت خافت: «لكنه ليس ملجأ يمكن أن يعوّل عليه، فالعالم الحقيقي يعود ويمزّقه إرباً، ويصبح من الصعب إيجاد أعذار كي نصدّق ما يسبب لنا ألماً أخف».

- سيد داين... ما الذي تحاول أن تقوله لي؟

- كنت لأفعل أيّ شيء لأنقذ ابني من رفض أمه له. أخرت الطلاق،

وسافرت إلى سويسرا لرؤيتها، ورجوتها أن تعود. حينذاك، كنت أكرهها، لكنني كنت مستعداً للعيش معها من أجله. حتى إنني اشتريت لها منزلاً أكبر وأفضل من بيتنا القديم. كانت تحب الأشياء الجميلة، فخطر لي...

تكلّمت إيفي بحذر فقالت: «ظننت أنك تستطيع استعادتها بإنفاق المال؟».

- رفضت حتى أن تعود لبعض الوقت... رفضت أن تلقي نظرة عليه. كانت مأخوذة بعشيقها ولا تهتم بأيّ شيء آخر.

- وماذا حصل لاحقاً؟

- ماتت. ماتا معاً في حادث سير. كنت هناك حينذاك، وبما أنني كنت لا أزال زوجها بحكم القانون، أشرفت على جنازتها. أفترض أنه كان عليّ أن أعيدها إلى هنا، لكنني لم أفعل. إنها مدفونة الآن في سويسرا.

- لكن... مارك... كنت مستعداً لتقديم كافة التنازلات لاستعادتها من أجله...

- نعم. كنت مستعداً لذلك في حياتها. لكن ما الفرق بعد أن ماتت؟

حدّقت فيه وقد أربكها هذا الرجل الذي يمكن أن يكون كريماً وحساساً جداً من جهة وغافلاً وغبياً من جهة أخرى. حاولت أن تشرح له: «أظن أنّ وجودها هنا كان ليشكّل فارقاً بالنسبة إلى مارك، حتى وهي ميتة. يحتاج الناس لنقطة ارتكاز لآلامهم، مكان يشعرون فيه أنهم أقرب إلى الشخص الذي فقدوه. هذا هو الهدف من وجود القبور. إن إحساس مارك بالخسارة مضاعف، لأنك بعت البيت الذي عاشت فيه، وجعلته يقيم في منزل لم تطأه قدماها. وهكذا، لا يمكنه أن يتجوّل في البيت ويتذكر أنهما ضحكا معاً هنا، وأنهما احتسيا الشاي معاً هناك. إنه يحتاج هذه الذكريات، لكن أين يبحث عنها الآن؟ أفي هذه الضريح الفخم الذي يجده فارغاً كلما عاد إلى المنزل؟».

- هذا المكان ليس فارغاً، فليلي هنا، وهو لا يريدني. يبدو أنك تلاحظين كل شيء، ولا بدّ أنك لاحظت هذا؟

- لاحظت أنكما لستما مقرّبين من بعضكما كما ينبغي لكما أن تكونا. ولا بدّ من أنك قادر على فعل شيء حيال ذلك. أظنك لا تمضي الكثير من الوقت

معه.

- عليّ أن أعمل كثيراً، فالعمل لا يتقدّم وحده. أنا أسسته وعليّ أن أشرف عليه طيلة الوقت.

- وهل هو أهم من ابنك؟

ردّ بحدّة: «أنا أبذل قصارى جهدي من أجل ابني».

- إنّ قصارى جهدك هذا قليل جداً.

- أحاول أن أؤمن له حياة لائقة...

- لقد رأيت هذه «الحياة اللائقة» في غرفته. أحدث أجهزة الكمبيوتر، أحدث الطابعات، أحدث آلات التصوير الرقمية...

قاطعها ليقول: «حسناً! تظنين أنني أركّز على المال، لكن المال لا يخذلك أبداً. ويمكنك أن تعتمدي عليه، وما تشترينه يصبح لك حقاً».

- وبالتالي تتحكم به؟

وافقها الرأي، من دون أن يدرك أنه فتح هوة تحت قدميه.. شركاً سيطبق عليه.

تحدّته قائلة: «وهذا هو الأهم، أليس كذلك؟ التحكّم».

- من المهم أحياناً أن تتحكمي بالأشياء. في الواقع، هذا الأمر مهم دوماً.

- الأشياء فقط، أم الناس أيضاً، لمَ تركتك زوجتك ورحلت حقاً؟

رمقها بنظرة كراهية صرفة وردّ بحدّة: «أظنني لم أدفع ما يكفي من مال».

وقبل أن تتمكن من الرد عليه، خرج من الغرفة وصفق الباب خلفه.

بقيت إيفي وحدها تلعن نفسها على تهوّرها: لم يكن يحق لي أن أقول هذا عن زوجته.

وتنهدت قبل أن تتساءل في سرها: لمَ أفقد أعصابي بهذه السهولة؟ عليّ أن أعثر عليه وأعتذر منه. يا إلهي! لمَ لا أنضج؟

سمعت وقع خطاه أمام البابَ فاستجمعت شجاعتها وحضّرت نفسها للأسوأ، إلاّ أنه بدا أهدأ حين دخل. سألها: «هل نستأنف حديثنا؟».

- إنها فكرة حسنة. أرجوك انسَ آخر سؤال طرحته. لم يكن من حقي...

فقال علي عجل: «لا بأس. على أيّ حال، لعل رأيك السيء بي صحيح، وأنت أول شخص يقول لي هذا لو لم تختاري التعقّل والتحدّث بلباقة».

زفرت مطوّلاً إزاء ما لمّح إليه قبل أن تقول: «أصبت».

رمقها بنظرة ساخرة: «سيفيد كبرياتي إذا ما سجّلت نقطة أو اثنتين».

فقالت: «رأيي فيك ليس سيئاً، أظنك تتخبّط وحسب».

- هذا صحيح. لا أعرف ماذا أقول لمارك أو ماذا أفعل. نحن لا نتكلم اللغة نفسها. لعل ما قلته عن الانتقال من المنزل صحيح، لكن نواياي كانت حسنة.

- ليتني أستطيع أن أساعدك...

وتنهدت قبل أن تردف: «لكنني لن أبقى هنا طويلاً. سأرحل مع انتهاء الفصل الدراسي. لكنني سأبقى على اتصال بمارك، إن كنت ترغب في ذلك».

- سأقدر لك ذلك.

- والآن، سأصعد لأراه كما وعدته.

- شكراً لك. بعدئذ، سأوصلك إلى بيتك.

- ما من داعٍ لذلك. سأطلب سيارة أجرة.

فقال بحزم: «سأوصلك إلى بيتك يا آنسة وارتون».

رافقها إلى الطابق العلوي، وتوقفا أمام باب غرفة مارك. رفعت إيفي يدها لتطرق الباب، لكنها عادت وبدّلت رأيها وفضّلت أن تشقه قليلاً.

وجاءها صوت مارك على الفور: «ما زلت مستيقظاً».

دخلت وهي تضحك ثم تقدّمت وجلست على حافة السرير قبل أن تأخذه بين ذراعيها. قالت: «سأرحل الآن. جئت فقط لأتمنى لك ليلة سعيدة وأشكرك على الصور. سأعطيك قرص تخزين المعلومات في المدرسة».

- هل ستكونين هناك؟

- لبعض الوقت.

وطبعت قبلة على خده قبل أن تقول: «إلى اللقاء!».

فأحاط عنقها بذراعيه وقال: «إلى اللقاء!».

عندئذ، رأى والده يقف عند الباب فأبعد يديه على الفور وقال بأدب:

www.elromancia.com

«مرحباً يا أبي».

- سأوصل الآنسة وارتون إلى منزلها يا بني.

- تصبحان على خير.

خطر لإيفي لو أنه يبتسم لوالده أو على الأقل يتوقّف عن التصرّف بهذا الأدب المفرط والجاف، إلاّ أن مارك لم ينطق بأيّ كلمة فيما هي وجاستين يتركان الغرفة.

في الأسفل، توقّف جاستين ليتحدّث إلى ليلي قبل أن يقود إيفي إلى سيارته.

- أين تقطنين؟

أعطته عنوانها وانطلقا في طريقهما. قال وهو يقود: «آسف لأننا أفسدنا أمسيتك مع صديقك».

- سأتصل به عندما أصل إلى البيت.

- ماذا ستقولين له؟

- الحقيقة طبعاً.

- هل سيسيء الفهم؟

- لا، لن يفعل ما دمت سألتزم بالوقائع.

- هل أنت من الأشخاص الصادقين للغاية، أولئك الذين يقولون دوماً الحقيقة؟

ضحكت: «لا، لست بهذا السوء. لا علاقة للصدق والأمانة بالموضوع. في الواقع، غالباً ما يرتدّ الكذب عليك، وقد تعلّمت هذا الدرس حين كنت في العاشرة من عمري».

وفي عتمة السيارة شعرت به يبتسم.

- تعلّمت هذا قبلك بكثير.

- أظن أن الصدق يمكن أن يتحوّل أحياناً إلى فضيلة مبالغ في تقديرها.

- يا للهرطقة!

- لا. لكنك تضطر أحياناً لأن تختار بين الصدق واللطف، واللطف عادة أفضل. ها هو بيتي، في ذاك المبنى.

- ماذا تفعلين عادة بالنسبة إلى الدراجة النارية؟

- أركنها في القبو. إذا ما أنزلتني على الرصيف هنا...

- في الواقع، كنت أرجو أن تدعيني للدخول كي أتمكّن من التحدّث إليك قليلاً.

وقبل أن تتمكن من الرد، تعالى رنين هاتفها الخلوي، فقال جاستين: «أظنه أندرو. قد تتمكنين من تمضية ما تبقى من الأمسية معه. حسناً! سأنزلك هنا. عمت مساءً».

لم يكن الوقت مناسباً أبداً كي يتصل أندرو، لكنها لم تجد أمامها أيّ خيار آخر سوى الترجّل من السيارة. أغلق جاستين الباب خلفها وانطلق بسيارته بسرعة لتبتلعه العتمة، تاركاً إياها تجيب على الاتصال الذي تبين أنه خطأ في الرقم.

بحثت إيفي عن مارك في المدرسة يوم الاثنين التالي، لكنها لم تجده. قالت لها ديبرا إنّ والده اتصل ليعلمهم أنه مصاب برشح، وسيضطر إلى التغيّب لبضعة أيام.

ستعيد له قرص تخزين المعلومات، لكنها اكتفت الآن بأن تكتب له ملاحظة صغيرة أشارت فيها إلى أن الصور جميلة، وأدرجت فيها عنوان بريدها الإلكتروني وأرسلت الكل في طرد.

في المساء، وجدت رده ينتظرها على جهاز الكمبيوتر، وقد أرفق به بعض الصور للجراء. شكرته وراحا يتبادلان الأحاديث لأيام عبر الرسائل الإلكترونية حتى كتبت له أخيراً: «إذا لم أرك قبل أن أرحل فأعدك بأن أراسلك من كافة أنحاء البلاد. سأتوجه الآن إلى منزلي الصغير الواقع على شاطىء البحر. سأرسل لك بعض الصور له والتي سألتقطها بآلة التصوير. إن كنت قادراً على استخدام آلتك بمهارة فأنا واثقة من أنني سأتمكن بدوري من استخدام آلتي».

فكرت في أن تتصل به لتطمئن عليه، لكنها قررت ألاّ تفعل. فهي ستغادر قريباً، وينبغي ألاّ تشجّع مارك على التعلّق بها. وتساءلت إن كان جاستين

سيطلب منها أن تزور الفتى، لكنها لم تسمع منه أيّ خبر.

دفعها الفضول إلى إجراء بحث عنه على الإنترنت وما وجدته أكّد لها ما قالته ليلي. جاستين داين يستولي على... الناس، الشركات، العالم. لقد انطلق من الصفر منذ خمس عشرة سنة، وتمكّن من بناء إمبراطورية بفضل كدّه وجهده وعبقريته وصلابته. لم تجد أيّ معلومات عن السنوات التي سبقت هذه السنوات الخمس عشرة. ومن القراءة بين السطور، تكوّن لدى إيفي انطباع بأنه رجل خشن، لا يبالي بمشاعر الآخرين، رجل يمكن أن يكون قد قضى فترة في السجن.

قالت متأملة: «يا لها من تحفة بغيضة! ربما من الأفضل ألا أقابله ثانية».

٤ - مهما كان الثمن

في اليوم الأخير من الفصل، كان من المفترض أن يغادر المدرّسون بعد الغداء مباشرة، إلاّ أن إيفي قررت عدم تناول الغداء، وتحضّرت للرحيل سريعاً، فأمامها رحلة طويلة.

قالت ديبرا وهي تراها توضّب أغراضها: «هل ستفرّين؟».

- هذا ليس فراراً.

- هذا كل ما تعرفينه. يتحدث مدير المدرسة عن خطفك واحتجازك حتى الفصل التالي.

ضحكت إيفي: «إذاً، ربما من الأفضل أن أهرب على الفور».

أشارت ديبرا إلى بطاقة كبيرة تحمل العديد من التواقيع قائلة: «هل هذه من الأولاد؟».

- نعم، أليس هذا لطيفاً منهم؟

- لا أرى اسم مارك. لم يستطع إذاً أن يعود في الوقت المناسب؟

- لا، ويؤسفني ألاّ أتمكن من توديعه. لعل هذا أفضل، فقد أصبح يميل إلى التعلّق بي. ليتني أتخلص من هذا الشعور المزعج بأنني تخليت عنه.

- لكنك لم تفعلي. لقد فعلت كل ما في وسعك. والآن، انسِ هذا المكان واستمتعي بصيفك. هل ستقصدين مكاناً معيّناً؟

- سأمضي بضعة أسابيع في منزل صغير على شاطىء البحر.

- رائع. مع اندرو؟

- سينضم إليّ بعد يوم أو اثنين، لكن هذا غير مؤكد. لقد سئم من مشاكلي، وأنا لا ألومه.

www.elromancia.com

- لا تقلقي. ما إن ينضم إليك حتى تتمكّني من حلّ الأمور... ضوء القمر المنعكس على صفحة الماء، الجو الرومنسي. لن يتمكّن من المقاومة.

- آمل ذلك.

الآن، وبعد أن أصبحت على وشك أن تفقد أندرو، وجدت إيفي نفسها تتذكر كم كان لطيفاً وحسن المعشر، وكم هي غبية لأنها خسرته. لكن الأمور ستسير على ما يرام. سينضم إليها، وسيمضيان وقتاً ممتعاً معاً وسينسيان متاعبهما كلها. ما لم تقله لديبرا هو أنها ستخلي المنزل الصغير للمرة الأخيرة. يعود هذا المنزل لرجل مسنّ من أقربائها، وقد توفي مؤخراً وتركه لها، لكنه أورثها معه ديوناً طائلة ما سيضطرها لعرض المنزل للبيع كي تسدد هذه الديون. لقد حان الوقت كي توضّب ما تركته هناك على مرّ السنين، وقد استأجرت شاحنة صغيرة لتنقل هذه الأغراض. عندما انتهت من توديع الجميع، خرجت إلى باحة المدرسة حيث كانت الشاحنة مركونة.

شعرت بالارتياح عندما خلّفت وراءها ضجيج نيويورك وزحمتها، واتجهت جنوباً إلى كرونيول ومن ثم بنزانس. كانت الشمس مشرقة، والريف يمتد من حولها ما ساهم كثيراً في رفع معنوياتها.

قطعت إيفي مسافة طويلة ولم تصل إلى حيث يقع المنزل قرب البحر إلاّ في وقت متأخر من الليل. بدا المبنى قديماً، يتألف من غرفة واسعة في الطابق الأرضي، عند أحد أطرافها يقع مطبخ صغير وفي الطرف الآخر سلم يوصل إلى الطابق العلوي.

شعرت بتيبّس في جسمها كله من جراء الجلوس لوقت طويل، فراحت تتمشى وتمط جسدها وتحرك كتفيها حتى عادت تشعر بالحياة تدبّ مجدداً في أطرافها. بعد أن حضّرت وجبة خفيفة، قررت الخلود إلى النوم على الفور، فالمنزل بارد بعض الشيء، وهو سيبدو أجمل في الصباح... أو لعله سيبدو أجمل عندما يصل أندرو. راحت تؤكد لنفسها أنه سيأتي. لقد ترك مسألة انضمامه إليها معلّقة لأنه متزعج من تصرفاتها ومن معاملتها له التي تفتقر إلى اللباقة. لا يمكن لعلاقتهما أن تنتهي على هذا النحو، وإذا ما حصل

ذلك، فالغلطة غلطة جاستين داين الذي جعلها تتشاجر معه.

قاوم عقلها فكرة أنّ اللوم يقع على مارك، فهذا الفتى المسكين يحمل على كتفيه ما يكفي من الأعباء من دون أن تضيف إليها مشاكلها. ولعلها أخطأت حين رحلت من دون أن تودّعه كما يجب. لم تكن واثقة من الطريقة المناسبة للتصرّف معه، لكن الفكرة أقلقتها. وفكرت في الطريقة التي تشاجرت بها مع جاستين. لم تكن تقصد أن تحاربه، لكنها لم تجد أيّ طريقة أخرى للتواصل مع هذا الرجل. فهو على الأقل يصغي إليها حين تهينه، لأنها تأخذه على حين غرة وتفاجئه بسلوكها هذا. لو كان يتمتع ببعض اللياقة لقصد المدرسة ودعاها إلى منزله لتودّع مارك، لكن يبدو أنّه لم يخطر له أن يحترم مشاعر ابنه.

في اليوم التالي، توجّهت إلى القرية لتشتري حاجياتها. وعند عودتها، عمدت إلى تنظيف المنزل كي يكون بأحسن حالاته في حال حضر من يرغب في شرائه. حاولت أن تشغل نفسها لئلا تفكر في أنّ الهاتف لم يرن، وأنّ ما من خبر من أندرو. حضّرت بعض السندويشات وتناولتها في الخارج وهي تشاهد المغيب مجدداً، وقد تملكها شعور حاد بالوحدة. فجأة سمعت صوتاً. صوت نفير سيارة يتبعه صرير العجلات على الدرب المفروشة بالحصى.

أندرو!

امتزج سرورها بالدهشة، ليس لأنه وصل فجأة من دون أن يعلمها مسبقاً بقدومه ومن دون أن يتصل وحسب، بل لأنّ عواطفه جرفته على ما يبدو ودفعته للقيام بمثل هذا التصرّف. ما هي إلا ثوانٍ حتى هبّت واقفة، وقطعت المسافة جرياً لتصل إلى حيث توقّفت السيارة لتوّها. عندئذ، رأت أن السائق ليس أندرو. هتفت مشدوهة فيما جاستين داين يترجل من السيارة: «أنت! ما الذي...؟».

خفت صوتها وهي ترى مارك يترجّل من السيارة بدوره ويبتسم لرؤيتها. بادلته الابتسام، وتحكّمت بصوتها ليبدو مرحاً وهي ترحب به.

قال جاستين: «كنا في المنطقة، وفكّرنا في أن نبحث عنك».

- لا تقلقي. ما إن ينضم إليك حتى تتمكني من حلّ الأمور... ضوء القمر المنعكس على صفحة الماء، الجو الرومنسي. لن يتمكّن من المقاومة.

- آمل ذلك.

الآن، وبعد أن أصبحت على وشك أن تفقد أندرو، وجدت إيفي نفسها تتذكر كم كان لطيفاً وحسن المعشر، وكم هي غبية لأنها خسرته. لكن الأمور ستسير على ما يرام. سينضم إليها، وسيمضيان وقتاً ممتعاً معاً وسينسيان متاعبهما كلها. ما لم تقله لديبرا هو أنها ستخلي المنزل الصغير للمرة الأخيرة. يعود هذا المنزل لرجل مسنّ من أقربائها، وقد توفي مؤخراً وتركه لها، لكنه أورثها معه ديوناً طائلة ما سيضطرها لعرض المنزل للبيع كي تسدد هذه الديون. لقد حان الوقت كي توضّب ما تركته هناك على مرّ السنين، وقد استأجرت شاحنة صغيرة لتنقل هذه الأغراض. عندما انتهت من توديع الجميع، خرجت إلى باحة المدرسة حيث كانت الشاحنة مركونة.

شعرت بالارتياح عندما خلّفت وراءها ضجيج نيويورك وزحمتها، واتجهت جنوباً إلى كرونيول ومن ثم بنزانس. كانت الشمس مشرقة، والريف يمتد من حولها ما ساهم كثيراً في رفع معنوياتها.

قطعت إيفي مسافة طويلة ولم تصل إلى حيث يقع المنزل قرب البحر إلاّ في وقت متأخر من الليل. بدا المبنى قديماً، يتألف من غرفة واسعة في الطابق الأرضي، عند أحد أطرافها يقع مطبخ صغير وفي الطرف الآخر سلم يوصل إلى الطابق العلوي.

شعرت بتيبّس في جسمها كله من جراء الجلوس لوقت طويل، فراحت تتمشى وتمط جسدها وتحرك كتفيها حتى عادت تشعر بالحياة تدبّ مجدداً في أطرافها. بعد أن حضّرت وجبة خفيفة، قررت الخلود إلى النوم على الفور، فالمنزل بارد بعض الشيء، وهو سيبدو أجمل في الصباح... أو لعله سيبدو أجمل عندما يصل أندرو. راحت تؤكد لنفسها أنه سيأتي. لقد ترك مسألة انضمامه إليها معلّقة لأنه منزعج من تصرفاتها ومن معاملتها له التي تفتقر إلى اللباقة. لا يمكن لعلاقتهما أن تنتهي على هذا النحو، وإذا ما حصل

ذلك، فالغلطة غلطة جاستين داين الذي جعلها تتشاجر معه.

قاوم عقلها فكرة أنّ اللوم يقع على مارك، فهذا الفتى المسكين يحمل على كتفيه ما يكفي من الأعباء من دون أن تضيف إليها مشاكلها. ولعلها أخطأت حين رحلت من دون أن تودّعه كما يجب. لم تكن واثقة من الطريقة المناسبة للتصرّف معه، لكن الفكرة أقلقتها. وفكرت في الطريقة التي تشاجرت بها مع جاستين. لم تكن تقصد أن تحاربه، لكنها لم تجد أيّ طريقة أخرى للتواصل مع هذا الرجل. فهو على الأقل يصغي إليها حين تهينه، لأنها تأخذه على حين غرة وتفاجئه بسلوكها هذا. لو كان يتمتع ببعض اللباقة لقصد المدرسة ودعاها إلى منزله لتودّع مارك، لكن يبدو أنه لم يخطر له أن يحترم مشاعر ابنه.

في اليوم التالي، توجّهت إلى القرية لتشتري حاجياتها. وعند عودتها، عمدت إلى تنظيف المنزل كي يكون بأحسن حالاته في حال حضر من يرغب في شرائه. حاولت أن تشغل نفسها لئلا تفكر في أنّ الهاتف لم يرن، وأنّ ما من خبر من أندرو. حضّرت بعض السندويشات وتناولتها في الخارج وهي تشاهد المغيب مجدداً، وقد تملكها شعور حاد بالوحدة. فجأة سمعت صوتاً. صوت نفير سيارة يتبعه صرير العجلات على الدرب المفروشة بالحصى.

أندرو!

امتزج سرورها بالدهشة، ليس لأنه وصل فجأة من دون أن يعلمها مسبقاً بقدومه ومن دون أن يتصل وحسب، بل لأنّ عواطفه جرفته على ما يبدو ودفعته للقيام بمثل هذا التصرّف. ما هي إلا ثوانٍ حتى هبّت واقفة، وقطعت المسافة جرياً لتصل إلى حيث توقّفت السيارة لتوّها. عندئذ، رأت أن السائق ليس أندرو. هتفت مشدوهة فيما جاستين داين يترجل من السيارة: «أنت! ما الذي...؟».

خفت صوتها وهي ترى مارك يترجّل من السيارة بدوره ويبتسم لرؤيتها. بادلته الابتسام، وتحكّمت بصوتها ليبدو مرحاً وهي ترحب به.

قال جاستين: «كنا في المنطقة، وفكّرنا في أن نبحث عنك».

- أتقول إنكما وصلتما إلى هذه المنطقة النائية من العالم بمحض الصدفة؟

لم تستطع أن تتخلّص من نبرة التشكيك في صوتها، فردّ كأنه يحاول اختيار كلماته بعناية: «حسناً... ! الأمر أكثر تعقيداً من ذلك».

قالت إيفي بنبرة لطيفة رغم مشاعرها المتضاربة: «لندخل إلى المنزل، حيث يمكنكما أن تخبراني كم هذا الأمر معقد».

لقد أفسدت علاقتها بأندرو من قبل، وستفعل ذلك مجدداً. ألقى مارك نظرة على جانب المنزل وقال: «انظرا كم نحن قريبون من البحر!».

قال جاستين: «أعرف بما تفكرين».

ردت بسخرية: «أتساءل إن كنت تفعل».

- أعرف أنه ما كان عليّ أن أحضر إلى هنا من دون إنذار مسبق، إلا أنني فعلت هذا من أجل مارك. كان حزيناً ومستاءً لأنه لن يراك مجدداً. جئنا إلى المدرسة في الأمس لكنك كنت قد رحلت. في الواقع، مارك مستاء مني لأنه أراد أن يذهب إلى المدرسة باكراً ووعدته بالعودة إلى المنزل قبل ذلك، لكنني تأخرت و...

قالت ضاحكة رغماً عنها: «إذاً، اللوم في عدم توديعي يقع عليك».

- نعم. بعدئذ، قال لي الحاجب إنك غادرت على متن شاحنة، لكنه لا يعرف وجهتك.

- كيف تمكّنت من العثور عليّ؟.

- أنتِ أخبرت مارك أنك تملكين منزلاً صغيراً قرب البحر.

- لكنني لم أقل له أين يقع.

- حسناً، أنا...

رأى الغضب يملأ عينيها من جديد، فتعمّد أن يكون غامضاً في كلامه: «سألت واستفهمت».

- أتعني أنك أجريت تحريات عني وكأنني مجرمة؟

- كان عليّ أن أكتشف مكانك.

راحا يحملقان في بعضهما البعض، وكل واحد منهما مرتبك لتصرّف

الآخر غير المتعقّل. تساءل جاستين لما لا يمكنها أن تفهم أنه قد يفعل كل ما يلزم ليحصل على ما يريد. هذا ما يفعله دوماً، وبكل بساطة.

إيفي بدورها ترى الأمور ببساطة، فهي تكره أن تُعامل وكأنها طريدة يلاحقها حين يناسبه. لكنها لن تقول له هذا فيما مارك يسمعهما. يمكن للشجار الحقيقي أن ينتظر إلى وقت لاحق.

نادى مارك بعد أن ظهر من جانب المبنى: «أبي، إنه مكان رائع! هل هو لك حقاً؟».

وجّه السؤال الأخير إلى إيفي، فأجابت: «نوعاً ما. ادخل لتتناول بعض الطعام».

إلاّ أن جاستين تدخّل قائلاً: «أصبح الوقت متأخراً، ومارك متعب، ويحتاج إلى النوم. لذا، سنبحث عن فندق، فهلاّ أرشدتنا إلى أقرب واحد».

- تعرف أنني لن أطردكما في مثل هذه الساعة.

ابتسم لها جاستين ابتسامة ساحرة فجأة، وقال: «لكنك لا تستطيعين استقبالنا من دون إنذار سابق. أفترض أنّ ما من مكان لنا، ولا أريد إزعاجك...».

تكلمت بخفة لكن اللمعان في عينيها وجّه إليه إنذاراً: «أنت لا تأبه إن كنت تزعجني. أنت لا تأبه بأيّ شيء ما دمت تصل إلى مبتغاك. والآن، اصمت، وادخل قبل أن أدوس بقوة على قدميك».

تحوّلت الابتسامة إلى تكشيرة، فقد ربح مجدداً. مارك بدوره كان يبتسم، كما لاحظت إيفي بسرور. وهي مستعدة لأن تسامح أباه تماماً من أجله.

حسناً، ليس تماماً.

تبيّن لها من كمية الحقائب التي أدخلها إلى المنزل أنه قصد المكان جاهزاً للإقامة فيه لبعض الوقت.

حذّرته قائلة: «المكان هنا ليس كالأماكن التي اعتدتها. ما من رفاهية بل الأمور الأساسية فقط».

فسألها وهو ينظر إليها بسخرية: «هل تحاولين التخلّص مني؟».

- وهل يمكن أن أفعل هذا؟

ابتسم لها مجدداً. ها هو جاستين داين في مزاج حسن مناسب للعطلات! بدت ابتسامته جذابة جداً بحيث ترفع معنويات أيّ امرأة إلاّ إذا كانت متيقّظة، كحالها هي. دخل مارك إلى المنزل وراح يتجوّل في الغرفة الكبيرة ويتأمل مدفأتها العريضة. قال بحماسة: «هذا رائع! أشبه بكتاب مصوّر».

فقالت: «ما كنت أظنّ أن الفتيان العصريين يقرأون هذا النوع من الكتب المصوّرة».

وافقها الرأي قائلاً: «ليس الآن، بل حين كنت صغيراً».

والتفت من حوله فوجد شيئاً آخر سرّه، فأضاف بسعادة: «ما من تدفئة مركزية!».

تساءل جاستين: «أهذه ناحية إيجابية؟».

شرح له مارك وجهة نظره: «التدفئة المركزية كانت لتفسد سحر المكان».

ضحكت إيفي: «هذا ما اعتاد العم جو أن يقوله. قال إنه لا يريد أن يفسد المكان بالكثير من «الخردة الحديثة». اعتدنا أن نستخدم المدافىء الكهربائية في الشتاء».

فقال جاستين: «هل من مكان لنستلقي فيه، فهذا جلّ ما نطلبه».

- يمكنكما استخدام غرفة الضيوف، ففيها سريران مفردان.

كانت قد انتهت لتوها من تنظيف الغرفة، فأحضرت الأغطية ووضعتها على السريرين، ثم قالت وهي تبتسم لجاستين: «لن يستغرق ترتيبهما وقتاً طويلاً. مارك، ما رأيك لو تركنا والدك هنا ونزلنا إلى المطبخ لنحضّر العشاء؟».

وغادرت الغرفة وهي ترمق جاستين بنظرة تحدٍ. نظر إليها وقد رفع حاجبيه، لكنه لم يبدُ حائراً أو مرتبكاً. وعندما وصلا إلى المطبخ، همست إيفي لمارك: «ما الذي يريده والدك؟».

هزة كتف مارك جاءت معبّرة: «عندما يقرر والدي شيئاً ما فهو ينفّذه، وقد وعدني بأن يمكّنني من التحدث إليك مجدداً».

- حتى وإن تطلب ذلك ملاحقتي عبر البلاد والتغيّب عن العمل ليوم كامل؟

ضحك مارك ضحكة عكست سروره قبل أن يقول: «في الواقع، لن يخسر والدي أيّ ساعة عمل، فقد أحضر معه جهاز الكمبيوتر النقّال، ويمكنه أن يرسل الرسائل الإلكترونية ويستلمها في أيّ وقت، كما أنه يحمل معه هاتفه الخلوي ليتلقى اتصالاته عليه...».

- اتصالاته كلها؟ كم يبلغ عدد هذه الاتصالات؟ وكم من الوقت ينوي البقاء هنا؟

ردّ مارك بحكمة: «الوقت الفعلي لا يهم. يمكن لأبي أن ينفّذ من الأعمال في خمس دقائق أكثر من أيّ شخص آخر. على أيّ حال، هذا ما يقوله. كما أنه يتصل إلى إميركا في المساء بسبب فارق الوقت الذي يصل إلى خمس ساعات، ويقول إنّ هذا مفيد فعلاً...».

- بمعنى آخر، والدك لا ينوي أن يستمتع بأيّ عطلة، بل سيعمل كالعادة إنما في مكان وظرف مختلفين.

أومأ مارك برأسه إيجاباً.

- حتى أطلب منه الرحيل.

فقال مارك وقد روّعته هذه الشجاعة المتهوّرة: «لن تفعلي!».

- بل سأفعل. سأكون صادقة معك، سأواجه والدك في الوقت المناسب وآمره بمغادرة بيتي.

فقال وقد أثّر فيه كلامها: «أوه!».

ودنا منها أكثر وتكلم بنبرة متواطىء: «هل يمكنك أن تعديني بشيء؟».

مالت نحوه وهمست بنبرة درامية: «ماذا؟».

- هل تعديني بأن أكون حاضراً عندما تطردين والدي من بيتك؟ عديني بذلك، أرجوك!

ضحكت إيفي: «أيها الفتى الرهيب. حسناً! أعدك بأن تكون موجوداً لتستمتع بذلك».

ابتعدا عن بعضهما عندما ظهر جاستين وقد ارتسم على وجهه تعبير انتصار. قال: «كل شيء على ما يرام في الأعلى، إذا ما رغبت في إلقاء نظرة».

سألته: «لمَ تبدو مسروراً من نفسك إلى هذا الحد؟».

- تعالي لترَي.

بدأت تشك في ما ستراه، لكنها ورغم ذلك تفاجأت حين وجدت السريرين مرتبين بشكل ممتاز والملابس معلقة في الخزانة وأدركت أنه يراقبها بدقة مستمتعاً بقراءة تعابير وجهها.

- أحسنت! هل تجيد الطبخ أيضاً؟

- التجربة خير برهان.

فقالت بنبرة مشككة: «سنرى ذلك».

أثبت لها جاستين مجدداً أنه أفضل مما اعتقدت. لعل طبقيّ البيض والبطاطا اللذين حضّرهما ليسا طبقين فاخرين، إلاّ أنهما معدّان بشكل جيد، حتى وإن أغرقهما الأب والابن بعصير الطماطم المركّز. ابتسمت وهي تراهما يتصرفان بشكل متطابق، فيمسحان طبقيهما بالخبز خشية أن يخسرا أيّ نقطة من العصير.

عندما انتهت الوجبة، استندت إلى الخلف تراقبه. قالت: «حسناً».

وأشارت برأسها نحو الحوض، فقال مستنكراً: «لكنني حضّرت الطعام».

فهمس مارك: «نعم، لكننا دعونا أنفسنا يا أبي».

هبّ واقفاً: «حسناً. سأغسل الأطباق فيما تجففينها. أين سائل الجلي؟».

ضحكت وقالت: «سأنظف الأطباق بنفسي».

في النهاية، ساهم الجميع في العمل في جوّ سار أكثر مما توقّعت. بعدئذ، طلب مارك أن يشاهد التلفزيون، وتفاجأ حين علم أنه لا يلتقط سوى القنوات الأرضية. وما من صحن لاقط أو جهاز ڤيديو.

قال لاهثاً: «يا إلهي، هذا المكان أثري!».

أخيراً، اتفقوا على مشاهدة الأخبار، وجلسوا بهدوء حتى سمعوا صوتاً ينذر بالسوء في الخارج. خففت إيفي صوت التلفزيون فيما شخص الكل

بأسماعهم بعدئذٍ.

خرجوا ليجدوا المطر يتساقط من دون انقطاع. قالت إيفي: «سيكون الطقس جيداً في الصباح».

التفت إليها مارك: «هل هذا وعد؟».

فردّت بطيش: «وعد. والآن، أظنّ أن عليك أن تخلد إلى النوم، فقد تأخر الوقت وفي الغد ينتظرنا الكثير».

- هل يمكننا أن نسبح؟

- وماذا عن رشحك؟

- أنا بخير حقاً. أليس كذلك يا أبي؟

فأكد لها جاستين: «لو كان مريضاً لما أحضرته إلى هنا. مارك، سمعت ما قالته الآنسة وارتون. هيا إلى النوم».

أمسك مارك بيدها: «الآنسة وارتون... هل يمكنني أن أناديك إيفي؟».

- مارك!

- حسناً! أنا لم أعد مدرّسته، واسمي إيفي.

غادر مارك وهو يشعر بالرضا.

همهم جاستين: «أنا آسف».

- لا داعي للأسف. إنه يحاول أن يكون ودوداً.

- أتظنين أنه سيكون ودوداً في الغد عندما تمطر؟

قالت وهي تتثاءب: «لن تمطر... فقد وعدته. أظن أنني سأخلد إلى النوم أيضاً. هواء البحر يسبب لي النعاس. تصبح على خير».

- تصبحين على خير.

عندما وصلت إلى غرفتها، خلعت ملابسها، واستلقت في سريرها تستمع علّها تسمع وقع خطاه وهو يصعد السلم، ثم غفت وهي تستمع.

لم تعلم ما الذي أيقظها، لكنها أفاقت من نومها فجأة والظلام يلفّ المكان. كانت الساعة قرب سريرها تشير إلى الثانية صباحاً. أصغت وظنت أنها سمعت صوتاً يتحدّث على مسافة منها.

ارتدت عباءة فوق ثياب النوم وتوجهت إلى الممر ومن ثم إلى أعلى السلالم حيث يمكنها أن ترى ما يجري في الغرفة الرئيسية في الأسفل.

كما تنبأ مارك، رأت جاستين جالساً إلى جهاز الكمبيوتر، يحدّق في الشاشة، فيما يتحدّث عبر هاتفه الخلوي. كان يتكلم بنعومة، لكن إيفي أحست بتوتر في نبرة صوته.

- أنا آسف لكنني لم أستطع أن أجيب عن الاتصال بعد الظهر... أعرف ما قلته لكن كان لديّ عمل هام...

نزلت السلالم بهدوء وتوجّهت إلى المطبخ. وعندما عادت حاملة معها فنجان شاي، كان قد أنهى اتصاله. قال وهو يأخذ أحد الفناجين: «شكراً! آسف لأنني أزعجتك، لكن كان عليّ أن أصرّف بعض الأعمال».

- نعم، يبدو أنك جئت مجهّزاً. أدهشني أن تؤجل عملك حتى تصل إلى هنا. كل هذه الساعات بعيداً عن الكمبيوتر وعن الهاتف وعن علاقاتك واتصالاتك.

- لا أزعج نفسي بإجراء الاتصالات فلا حاجة بي إلى ذلك. الناس يتصلون بي.

فقالت بنبرة تسلية: «أيها المتبجح. على أيّ حال، هذا ليس صحيحاً، فثمة من هو أكبر دوماً لتتعامل معه».

- هذا صحيح. لِمَ لا تقولين مباشرة إنك فوجئت لأني قدّمت مارك على مصالحي الأخرى؟

- حسناً...!

- لا تقلقي، فقد سبق وأوضحت رأيك السيء فيّ، وأنا لا أجادلك فيه.

- حسناً، تحسّن رأيي فيك عندما تكبّدت عناء القيادة حتى هذا المكان من أجل مارك. إلاّ أنّ ما يغيظ هو طريقتك في تحريك الناس، وكأنهم أحجار على رقعة الشطرنج الخاصة بك.

- هل أفعل هذا فعلاً؟ حسناً! ربما، أحياناً.

- أنت تعلم جيداً أنّ هذا ما تفعله.

- آنسة وارتون...

بدأ يتكلم بصوت صبور، لكنها قاطعته: «ماذا قلت؟».

- لم أقل شيئاً.

- بل قلت. ناديتني باسم ما.

- ناديتك بالآنسة وارتون.

- لكن لماذا؟

- اعتقدت أنّ هذا هو اسمك.

- لكن لِمَ لا تناديني إيفي؟

- لأنك لم تأذني لي بذلك.

شدّت شعرها: «لكنني سمحت لمارك بذلك».

- نعم، لمارك وليس لي.

أدركت أنه جاد في كلامه. هل يمكن لرجل معاصر أن يكون تقليدياً إلى هذا الحد؟ رأت رغماً عنها أنّ هذه الناحية فيه ساحرة.

سألها بنبرة مرتابة: «لِمَ تبتسمين؟».

- لا شيء.

لا داعي لأن تخبره أنها تجده ساحراً فسيكره ذلك: «نادني إيفي. اسمع! يمكنكما أن تبقيا هنا لبعض الوقت لكنني سأضطر لأن أطلب منكما الرحيل من دون سابق إنذار. فأنا أنتظر أحدهم؟».

- أندرو؟

- نعم، وإن كان الأمر لا يعنيك.

- ومتى سيأتي؟

- لست واثقة، لكن ما إن أعلم أنه قادم حتى أطلب منك الرحيل. أمامنا الكثير كي نتصالح بشأنه.

- أتعنين بسبب ذاك المساء؟

- وأمور أخرى.

- لكنني لا بد أنك أوضحت الأمور عندما اتصل بك!

كشّرت: «لم يكن هو المتصل، بل شخص أخطأ في طلب الرقم».

- وهل عاد أندرو واتصل بك؟

- أنا اتصلت به. الأمر سيان.

لم يعلّق، لكنه سأل وهو مستغرق في التفكير: «هل تحبينه؟».

أخذت نفساً حاداً: «هذا الأمر لا يعنيك».

- أفترض أنّ الأمر لا يعنيني، لكنني طرحت السؤال الآن، فلِمَ لا تجيبين؟ فإما أنك تحبينه وإما أنك لست واثقة. والسبب الذي جعلك تتخلين عنه بسهولة هو أنك تحاولين أن تقولي له بطريقة غير مباشرة إنك لا تريدينه.

بما أن أندرو نفسه قال ما يشبه هذا الكلام، وجدت إيفي نفسها عاجزة عن الرد. ورأت أنها تفضّل جاستين داين حين تستطيع أن تنظر إليه بعدائية واضحة، بسيطة وغير معقّدة. قالت بحزم: «نعم، أنا أحب أندرو».

بقي صامتاً للحظة، ثم قال أخيراً: «حسناً. إذاً، أنت تريدينا أن نرحل غداً؟».

- لم أقل هذا.

- لكن إن وجدني هنا فقد يظن أنك تخونينه. نعم، أعلم أنك ستقولين له الحقيقة؛ لكن هل سيصدقك؟

- طبعاً. نحن نثق ببعضنا البعض كلياً. كما أنه لن يحضر دون سابق إنذار، سيتصل أولاً.

- قد يتصرف بشكل مختلف عما اعتاده هذه المرة.

- أندرو لن يفعل.

- ثابت ويُعوّل عليه!

- نعم.

- ألا يجعل هذا الحياة روتينية ومملة؟

نظرت إليه بعينين تقدحان شرراً. لن تسامحه أبداً لأنه يردد صدى أفكارها. ذكّرت نفسها بسرعة بأنّ هذه أفكارها السابقة التي تعود إلى ما قبل أن تدرك كم ستكون غبية إذا ما خسرته.

- لن أناقش موضوع أندرو معك.

- أتعلمين، أظن أن هذا قرار حكيم جداً.

حملقا في بعضهما البعض وأدركت أنّ انطباعها السابق ليس صحيحاً، فهو ساحر حقاً.

قالت: «مهاراتك المنزلية أثارت إعجابي. فأنت قادر على الطهو وترتيب الأسرّة. لقد أحسنت أمك تربيتك فعلاً».

حين رفعت ناظريها إليه وجدته يحدّق إلى البعيد قبل أن يجيب: «أنا لم أعرفها أبداً».

- أتعني أنها ماتت باكراً.

- شيء من هذا القبيل. سأكفّ عن العمل لهذه الليلة.

وبدأ بإطفاء جهاز الكمبيوتر. فسألت وقد حيّرتها طريقته في إقفال الباب في وجهها بطريقة تماثل طريقة ابنه: «هل أخطأت في شيء ما؟».

- لا! أبداً.

- هل أسأت إليك حين ذكرت أمك؟

- لا! أبداً. حسناً! لقد انتهيت. على فكرة، أظن أن المطر توقّف عن التساقط.

- هذا طبيعي. ماذا قلت لك؟

نظر إليها للحظة، ولاحظ لمعان عينيها، ولم يستطع أن يمنع نفسه من الابتسام لها: «كدت للحظة تقنعينني بأنك تتمتعين بقدرات خارقة».

- ربما. أعتقد أنني سأتركك في حيرتك. اسمع! ماذا عن ملابس السباحة؟ أعني إن كنتما لا تتوقعان البقاء...

- لقد أحضرناها معنا. خطر لي أنني قد أقنعك.

فقالت بعبوس: «كلام تافه! هل تمكّن أحدهم يوماً من طردك عن الباب؟».

- آخر رجل حاول ذلك كان يناضل ليمنعني من كسب مناقصة.

- يمكنني أن أتخيل من الذي كسبها.

www.elromancia.com

قال بعد تفكير: «حسناً! لقد كسبت، لكنه جعلني أدفع ثمناً أعلى مما كنت أنوي».

رفعت يديها في حركة استهزاء: «يا للكارثة!».

- هذا يتوقف على ما تهدفين إليه. قليلة هي الأمور التي تستحق أيّ ثمن.

- وما هو هدفك الآن؟

- نيل ثقة ابني... حبه... بأيّ ثمن.

جوابه فاجأها وأخرسها. كانت تتوقّع ذلك، لكن سماعه منه حذّرها من أنها أساءت فهمه جزئياً. أصبحت النقاط لصالحه أكثر مما ظنت، حتى أصبح من الممكن أن تُعجب به. عاد يقول: «لكنني أحتاج إلى مساعدتك، ولهذا جئت إلى هنا. وجودك أمر حيوي إذا أردت الحصول على أيّ فرصة».

فجأة، شعرت إيفي وكأنها حجر على رقعة الشطرنج، ما أزعجها وجعلها تقول: «إذاً، حسبت كلفة العمل بنصف سرعتك لبضعة أيام فوجدت أنها مقبولة. لكن أين موقعي أنا في معادلتك؟».

- قلت لك إنّ وجودك حيوي.

جادلته قائلة: «لكن افترض أنّ كلفتي عالية جداً؟».

بدأت تجد مجادلة هذا الرجل أو مبارزته وإن بالكلام منعشة جداً.

رفع حاجبه وقال بسخرية ناعمة: «ربما عليك أن تطلعيني على هذه الكلفة الآن، كي أتخذ التدابير اللازمة».

فردّت بغيظ: «أغرب عن وجهي! سأخلد إلى النوم».

٥ - لحظات سعادة عابرة

في الصباح التالي، نظرت إيفي من نافذتها وحمدت الله لأنها حافظت على وعدها المتهوّر لمارك. إنه يوم مثالي، فالشمس ساطعة تتلألأ على الأمواج.

بعد قليل، نزلت إلى الطابق السفلي، ووضعت الإبريق على النار وراحت تعدّ الفطور. وبعد دقائق، انضما إليها، وأدهشتها رؤية جاستين يرتدي سروالاً قصيراً وقميصاً رياضية.

حدّقت إليه أكثر حين انحنى أمامها ثم التفت إلى ابنه كأنه يسأله إن كان قد أحسن التصرف. إلاّ أنّ مارك لم يكن راضياً، فصرخ وهو ينحني أكثر: «أيتها العظيمة!».

وشرح لها جاستين: «يصرّ مارك على أن نفعل هذا، فهو يقول إنك تتمتعين بقدرات سحرية لأنك جعلت المطر يتوقف والشمس تشرق، لذا علينا أن نستعطفك، أيتها العظيمة».

وسرّها أن ينحني مجدداً. ضحكت: «حسناً! يكفي تذللاً لليوم. تعالا وتناولا الفطور».

راح مارك يرجوها: «ألا يمكننا أن نذهب إلى الشاطىء الآن؟».

- سنذهب لاحقاً، بعد أن تصبح المياه دافئة بعض الشيء، فقد استعدت عافيتك لتوك.

فقال جاستين: «كما أنّ علينا أولاً أن نخرج لشراء بعض الطعام».

التجوّل في السوبرماركت المحلي أعطاها فكرة أخرى عن أوجه شخصيته المتعددة. فهو لا يطهو وحسب بل يعرف ما عليه شراؤه. وخطر لها أنه يتمتع بالقوة والنشاط أيضاً.

www.elromancia.com

سأل مارك بنبرة تذمّر وهم في طريق عودتهم إلى المنزل: «هل يمكننا الذهاب إلى الشاطىء الآن؟ فالحرارة مرتفعة جداً».

فردّت إيفي: «يمكننا أن نحضّر بعض السندويشات ونحملها معنا».

كان الدرب من المنزل إلى الشاطىء مغطى بالصخور الضخمة فاضطروا إلى قطعه سيراً على الأقدام. عند طرفه البعيد، امتد الرمل ليلامس البحر فبدا أشبه بذرّات من ذهب. إنها منطقة صغيرة، مخفية بين صفّين من الصخور ما جعلها أشبه بشاطىء خاص.

كانت إيفي قد بدّلت ثيابها وارتدت ثوب السباحة تحتها. أزعجها ارتداء ثوب السباحة هذا اليوم إذ اختارته وهي تفكر في أندرو، وكان من الأفضل ألاّ ترتديه الآن، لكن هذا لم يخطر لها إلاّ بعد فوات الأوان.

وقالت في سرّها: حسناً! هذا الثوب متواضع مقارنة مع غيره، حتى إنه محتشم.

شرعوا بأكل السندويشات والبرتقال، لكن مارك لم يأكل سوى اليسير.

هبّ واقفاً على قدميه، وقطع الشاطىء الرملي ليرتمي في مياه البحر قبل أن يتمكّنا من منعه. قال جاستين وهو يخلع ملابسه ويلحق بابنه: «هيا بنا».

خلعت إيفي ملابسها، وركضت خلفهما مستمتعة بالهواء المنعش وبالشمس على بشرتها وبلحظة الغطس المجيدة في الماء. رفعت رأسها من تحت الماء والتفتت من حولها، فرأتهما يتحضران لرشقها بالمياه. صرخت وتراجعت محاولة ردّهما، إلاّ أنهما راحا يرشانها من دون رحمة حتى غطست تحت سطح الماء لتفرّ منهما.

وأخيراً صرخت فيما هما يقهقهان: «استسلم، استسلم».

راحا يرشقان بعضهما لبعض الوقت، فيما تراجعت إيفي إلى الخلف تاركة الأب والابن يمرحان معاً. وأخيراً، أعلن مارك أنه جائع، فقالت إيفي: «تعال وأنهِ غداءك».

- حسناً.

فقال جاستين وهو يلتفت نحو البحر: «سأسبح قليلاً».

عادت إيفي ومارك إلى حيث وضعوا أغراضهم، فجففا جسديهما وجلس كل منهما على منشفته.

اعترف لها مارك: «أنا مسرور جداً لأننا أتينا. وأبي أيضاً».

- هل قال لك هذا؟

هزّ رأسه نافياً، فيما رذاذ الماء يتطاير من شعره، ثم أجاب: «أبي لا يقول كلاماً كهذا، لكنه يبدو سعيداً، وأظن أنّ الفضل في ذلك يعود لك».

فقالت: «لا، إنه سعيد بسببك أنت، فهو يحب البقاء معك. لكن يسرّني أنه سعيد، فهو ألطف بكثير عندما تتمكّن من انتزاع ابتسامة منه».

قال مارك بنبرة حملت في طياتها الكثير من المشاعر المكبوتة: «نعم».

والتفتت نحو البحر قائلة: «أين ذهب؟».

أخرج مارك منظاراً من حقيبته وردّ وهو يعطيها إياه: «هناك... لقد ابتعد».

بعد لحظات، رأت رأس جاستين الداكن وحركة ذراعيه المفتولتي العضلات اللتين تضربان الأمواج. وفيما هي تراقبه، توجه نحو الصخور التي تلامس البحر، وحين وصل إليها، تسلّقها ووقف للحظة وجسمه الرطب يلمع تحت أشعة الشمس. بعدئذ غطس مجدداً، وسبح في دائرة واسعة قبل أن يعود ويتسلق الصخور من جديد.

بدا جسمه نحيلاً ومشدوداً رغم بنيته القوية العضلات. كان أشبه برياضي محترف أو برجل يمارس عملاً يدوياً متعباً، أكثر منه برجل أعمال يرتدي الملابس الحريرية ويجوب العالم ويعقد الصفقات.

لمس مارك ذراعها: «إيفي!».

وعادت إلى أرض الواقع، واضعة المنظار من يدها: «آسفة... ماذا؟».

- ناديتك مراراً وتكراراً لكنك لم تسمعيني.

قالت بشكل مبهم: «المشهد أذهلني».

حاولت أن تركّز على الطعام، لكن الشمس بهرتها، ولم تتمكّن من محو المشهد حتى بعد أن أغمضت عينيها. ظلت صورته هناك خلف جفنيها

المطبقين، وهو يغطس في المياه ويخرج منها فيما الرذاذ يتلألأ على جسده. عندما فتحت عينيها مجدداً، رأته يسير على الشاطىء ويتقدّم منهما.

قال بعد أن ارتمى قربهما: «هذا أفضل! مضى عليّ وقت طويل من دون أن أمارس الرياضة».

فقالت: «تصوّرتك تتدرّب في نادٍ رياضي».

- أنا أفعل نظرياً، لكن العمل يتراكم، وتؤجّل الرياضة إلى الغد.

فقالت بالإيطالية وهي ترمق مارك بنظرة تواطؤ: «غداً، غداً، دائماً غداً!».

راح جاستين ينقّل نظراته بينهما، فيما قام مارك بترجمة ما قالته، ثم قال وهو يقف: «سأذهب لاستكشاف المكان».

فقال جاستين وهو يتأمل القامة النحيلة تبتعد: «لم أره يوماً يستمتع بوقته كما يفعل الآن. شكراً لك».

- ألم تذهبا في عطلة إلى شاطىء البحر من قبل؟

- قمنا برحلات بعيدة حين كانت أمه على قيد الحياة، لكن إلى أمكنة كديزني لاند. فهذا ما يبدو أن الأولاد يرغبون فيه في أيامنا هذه، أما هذا...!

وأشار إلى المحيط مضيفاً: «إنه سعيد».

- هل اصطحبتك عائلتك يوماً إلى شاطىء البحر حين كنت صغيراً؟

تساءلت إن كان قد سمعها، إذ بقي يحدّق أمامه من دون أن يجيب. وأخيراً، أدركت أنه تجاهل سؤالها كلياً.

خطر لها أنها لو عرفت سبب تصرفه هذا، لفهمت الاضطراب الذي يختزنه في داخله بشكل أفضل. سأل جاستين وعيناه لا تفارقان ابنه: «ماذا يفعل الآن؟».

كان مارك واقفاً على الصخور، يحدّق في بركة ما مبهوراً على ما يبدو بما يراه.

قالت: «لعله سرطان بحر أو قنديل بحر. اعتدت أن أتأملها في هذه البركة نفسها حين كنت صغيرة».

- هل هذا المكان لأسرتك؟

- إنه لعم أبي جو. كان رجلاً مسناً رائعاً. لم يتزوج يوماً، وهو الذي ربّاني بعد وفاة والديّ. كنت حينذاك في الثانية عشرة من عمري، وكانت الحياة معه أكثر من مجرد مأوى ومأكل. لقد أحببت والديّ، لكنهما كانا تقليديين للغاية، ومقتنعين أن الأمور لا تسير إلاّ بطريقة صحيحة واحدة. كان هذا خانقاً. أما جو فكان نقيضهما تماماً. كان يعتقد أنّ ما من طريقة صحيحة في الحياة، بل مجرد خيارات خاطئة على المرء أن يختار منها ما يناسبه. كان شعاره: «فليذهب أكثرهم إلى الجحيم!».

ابتسم جاستين واستند إلى مرفقه لينظر إليها قائلاً: «أراهن على أن ابنة الاثني عشر ربيعاً أحبّت ذلك».

فقالت وهي تتنهد للذكرى السعيدة: «كان رائعاً، أشبه بنور يرشدني في هذا العالم. كان جو يعتبر أنّ الجريمة الوحيدة التي يرتكبها المرء هي أن يفعل ما يتوقعه الآخرون، وأنّ إزعاج شخص واحد على الأقل في كل يوم فضيلة».

- حسناً! لهذا السبب إذاً...

فقاطعته: «لا! لم أصل إلى هذا الحد يوماً».

فسألها وقد رفع حاجبه: «إذاً، أنت تحتفظين بهذه التصرفات لي وحدي؟».

- لمن يستحقها فقط. هل أكمل؟

- تفضلي أرجوك.

- شعرت بحزن شديد حين اضطررت إلى ترك هذا المكان لأكمل دراستي الجامعية، حتى إنني فكرت بعدم الذهاب، لكن جو فقد أعصابه وكاد يطردني. قال لي إن لم أستغل فرصتي، فلا داعي لأن أعود إلى هذا المكان مجدداً. وهكذا، ذهبت، لكنني كنت أعود في كل عطلة صيفية. هذا المكان هو أجمل مكان في العالم بالنسبة إليّ.

تنهدت بسعادة، وراحت تتأمل المشهد الجميل من حولها، إلاّ أن الحزن ما لبث أن ارتسم على وجهها: «مات جو مؤخراً تاركاً المنزل لي، لكنني اكتشفت أنه ترك خلفه ديوناً طائلة. لم تكن لديّ فكرة. اعتدت أن أرسل له المال لكن

يبدو أنه كان ينفقه على المراهنات. لم أكن على علم بمشكلته هذه، ولديّ شعور فظيع بأنها تفاقمت بعد رحيلي، لأنه أحس بالوحدة. والآن، عليّ أن أبيع المنزل لأسدد الديون. جئت إلى هنا لآخذ أغراضي، وألقي نظرة أخيرة على المكان».

سألها بحدة وهو يستقيم في جلسته: «أستفقدين هذا المكان؟».

- حالما أحصل على عرض مناسب. فكرت في الاحتفاظ به وتسديد الديون... لكنني لا أستطيع. حتى إنني فكّرت...

قاطعها رنين هاتفها الخلوي، ولاحظ جاستين تنبّهها المفاجىء وعجلتها في البحث عن الهاتف في حقيبتها. كما لاحظ الهبوط المفاجىء لكتفيها فيما هي تقول: «مرحباً سالي».

تبع ذلك حوار عن النسخ المبدئية والطباعة والتصحيح، ولم يتفاجأ حين أقفلت الخط وقالت: «إنها الناشرة، تسألني عن كتاب سيصدر الشهر المقبل».

- إذاً، المتصل ليس أندرو؟ ألم يتصل بك بعد؟

- وصلت إلى هنا منذ يومين فقط.

قال جاستين من دون أن يلين: «وفي هذين اليومين، هل اتصل بك؟».

- أرجوك لا تستجوبني، يا سيد داين.

- سأعتبر هذا رداً بالنفي. إن كنت أحب امرأة ما فلن أنسى أن أتصل بها.

- حسناً! لعله لا يرغب في أن يبدو قلقاً جداً. واجهنا مشاكل عدة، ولهذا السبب سيأتي إلى هنا.

- لكن، هل سيأتي حقاً؟

تجاهلت تلميحه: «سنمضي بعض الوقت معاً لنحلّ مشاكلنا».

- الوقت مبكر لذلك، أليس كذلك؟

- لا أعلم ما الذي تعنيه.

تمنت لو ينسى هذا الموضوع، لكنه لم يفعل. وكأنه يعلم كم يزعجها هذا الحديث، قال: «أعني حلّ المشاكل هو ما يفعله اثنان بعد مضي وقت طويل على علاقتهما، وتحوّلها إلى علاقة بغيضة، بحيث يرغبان في استعادة سحر اللحظات الماضية. إن كنتما ستحلان مشاكلكما وأنتما لا تزالان على البرّ فهو الرجل غير

المناسب لك».

- أنا من يقرر ذلك. شكراً لك!

- يمكنك أن تقرري ما تشائين، لكنه الرجل غير المناسب. فلِمَ تصرّين عليه؟ إلاّ إذا كنت تخشين أن تصبحي عانساً عجوزاً.

فقالت تسكته: «اغرب عن وجهي».

- حسناً! كان عليّ أن أقول هذا.. لم تعودي صغيرة. لا بدّ أنك شارفت على... الأربعين؟

- الثلاثون!

قهقه ضاحكاً: «كنت قد راهنت نفسي على أنني سأكتشف كم هو عمرك قبل انتهاء هذا اليوم».

كشّرت في وجهه فضحك مجدداً: «إذاً، ستبلغين الثلاثين من عمرك، وهو أملك الوحيد وفرصتك الأخيرة. أنت جميلة في الضوء الخافت، لكن أحداً لم يعرض عليك الالتزام مدى الحياة».

كانت عيناه تلمعان فبادلته الابتسام وقد أربكها ظهور سحره المفاجىء.

- إذن، أظنك تغاضيت عن الكثير من تصرفاته الغريبة خوفاً من أن تفقديه.

- أبداً. تصرفاتي الغريبة هي التي تسببت بالمشاكل.

- لمجرد أنك تخليت عنه تلك الليلة وتشاجرت معه، بدأ يتردد؟

- ألن تتردد إذا ما تخلت عنك امرأتك؟

قال بثقة تامة كادت تعجب بها: «أنا، لا أحد يتخلى عني».

- أنت أكثر الرجال الذي قابلتهم غطرسة وغروراً.

- أنا أسرد الوقائع وحسب. لم يحتمل أن يأتي في المرتبة الثانية تلك الليلة.

- هذه لم تكن الحادثة الوحيدة... ثمة أمور أخرى. لكن هذا كله انتهى الآن.

- ألأنه بطلك، والشخص الوحيد الذي يسرّع صوته دقات قلبك؟ الرجل الذي...؟

قالت محاولة ألاّ تضحك: «حسناً! المسألة أكثر واقعية من ذلك، لكن، كما قلت، التقدّم في السن بدأ زحفه نحوي».

فقال بنبرة عدم تصديق: «نعم، هذا صحيح».

لكن كلامه هذا تحوّل إلى مديح بفضل نظرة التقويم التي ألقاها على وجهها وقامتها.

كانت هذه المرة الأولى التي تستشعر فيها أنه مُعجب بها كامرأة، ما جعلها تفقد توازنها. وفجأة لم يعد لباس البحر «المتواضع» متواضعاً، وبدا لها مكشوفاً أكثر مما عهدته من قبل.

وشعرت بالحمرة تزحف إلى وجنتيها، إلاّ أنها اكتشفت وفي الوقت المناسب ما يسعى إليه فعلاً. أرادها ألاّ تفكر بسوى مارك، وإذا اقتضى ذلك مواجهة المصالح الأخرى فهذا ما سيفعله.

حسناً! أعذر من أنذر. لن يُضرّ به بعض التعذيب.

تنهّدت: «في الواقع، أنا على مفترق طرق في حياتي. الحرية مناسبة إلى حدّ ما، لكن المرأة ترغب عاجلاً أم آجلاً في الاستقرار مع رجل مناسب، كما أنها تبحث عن الأمان. بعد أن أسدد ديون جو لن يتبقى لي الكثير، وعليّ أن أفكر في المستقبل».

- أتعنين أنك قد تتزوجينه من أجل المال؟

- ليس لهذا السبب فقط. لقد قلتها بنفسك، إنه بطلي. صوته يجعل دقات قلبي تتسارع...

وصمتت بعد أن لاحظت أنه يحدّق فيها، ثم ضحكت وتابعت: «حسناً! شيء من هذا القبيل».

- ولمَ لست في لندن، تقرعين بابه؟

- لأن هذا سيدفعه في الاتجاه المعاكس. ما هو شعورك حيال امرأة ترتمي عليك؟ يا لسخافتي! أفترض أنك مررت بهذا من قبل.

نظر إليها ساخراً: «أتظنين ذلك؟».

سألته بمرح: «مع ما لديك من المال؟ بالطبع!».

وخطر لها أنّ النظر إليه ممدداً على الرمال يثير الإعجاب أكثر من رؤيته عن بعد. فكرت في المسألة بنزاهة تامة. ما تفضّله هو رجل كأندرو، ذو بنية متوسطة، لكن بعقلية تتماشى مع عقليّتها. فعقل الرجل مهم، وأندرو ذكي ومثقف ومؤدب وحساس. جاستين دابن ذكي من دون شك أو على الأرجح يتحوّل إلى داهية ماكر حين تكون مصالحه على المحك، لكنه ليس واسع الاطلاع بالتأكيد.

لا بد أنه يتسبب بجنون مؤقت لأيّ امرأة عرضة للتأثر بسرعة، لكن من حسن حظّها أنها ليست سريعة التأثر.

عاد مارك نحوهما راكضاً، وهو يحمل سرطاناً صغيراً عرضه عليهما بكل فخر: «انظرا ماذا وجدت».

قال جاستين وهو ينظر إلى السرطان بطرف عينه: «هذا لطيف!».

فيما قالت إيفي وهي تمسك السرطان الصغير بيدها: «أليس جميلاً؟ اعتدت أن أبحث عنها على الشاطىء حين كنت طفلة».

- ماذا كنت تفعلين بها؟

- اعتدت أن أبحث عن شخص ما لأضعها في قميصه.

فقال جاستين بصوت مثقل بالمعاني: «حقاً! أنصحكما بنسيان مثل هذه الفكرة».

عندئذ، أثار مارك سرورها بسؤاله: «أيعقل أن تكون خائفاً يا أبي؟».

وسرّهما جاستين أكثر حين كشّر وقال: «بل مذعور. تذكّرا هذا، وحذار!».

ضحكوا جميعهم، وبدت من أسعد اللحظات التي عاشوها معاً. رنّ هاتفها الخلوي مجدداً، فانتفض قلبها لفكرة أن يكون المتصل أندرو، إذ أدركت وبندم بالغ أنّ هذه اللحظة انتهت، لكن المتصل لم يكن أندرو. سألها صوت أنثوي غير مألوف إن كانت الآنسة وارتون، ثم شرح لها أن ثنائياً يرغب في رؤية المنزل بعد ظهر هذا اليوم إذا أمكن.

فقالت إيفي: «نعم... نعم، بالطبع! هل تحتاجين إلى إرشادات للوصول

إلى هنا؟».

وفيما هي تعطي الإرشادات، راح جاستين يجمع حاجياتهم، وهو يشرح بهدوء ما يحدث لمارك. عندما أقفلت إيفي الخط، كانوا مستعدين للانطلاق في طريق العودة إلى المنزل.

قالت: «إنها سمسار العقارات. سيصل السيد والسيدة نيكولسن بعد بضع ساعات لرؤية المنزل».

وأشاحت بوجهها سريعاً لئلا يفضح مشاعرها والتعاسة التي اكتسحتها فجأة. همس جاستين بنبرة متأملة: «أفترض أنّ وجود شارٍ محتمل خبر جيد».

فقالت في محاولة منها لإقناع نفسها: «نعم. عليّ أن أذهب وأرتّب المكان».

تركوا المنزل باكراً هذا الصباح، بحيث لم يتكبّدوا حتى عناء ترتيب الأسرّة وتنظيف المطبخ لشدة لهفتهم للذهاب إلى الشاطىء. أما الآن فتعاون الثلاثة، حيث راحوا يجولون في المكان بسرعة، لترتيب الأثاث وإزالة الغبار.

وصل السيد والسيدة نيكولسن قبل الموعد بنصف ساعة، ودخلا إلى البيت وكأنه ملك لهما. انهما زوجان ثريان، وفي منتصف العمر وغير حساسين.

سألت السيدة نيكولسن زوجها وهي تقف وسط الغرفة الكبيرة: «أليس رائعاً؟ أنظر إلى هذه الأحجار. يا له من مكان رومانسي! هناك مدفأة حقيقية! كم هذا جميل! لكن علينا إزالتها بالطبع».

لم تتمكّن إيفي من منع نفسها من السؤال: «لكن.. لماذا، طالما أنها جميلة؟».

- إنها غير صحية. هذا الدخان كله..

علّق جاستين: «الدخان يتصاعد عبر المدخنة».

فقالت السيدة نيكولسن بحزم: «لكنها لا تزال غير صحية».

يبدو أنها امرأة عنيدة لا تتراجع عما تقوله. جالت هي وزوجها الصامت معظم الوقت في المنزل كله، وهما لا يكفّان عن ترداد كلمات من نوع جميل، رائع، مذهل، بالإضافة إلى الكثير من عبارات الانتقاد.

بدأت ملامح جاستين تستحيل داكنة، وكأن تصرفاتهما تزعجه هو أيضاً.

تقدّم أخيراً من إيفي، ووقف خلفها واضعاً يديه الدافئتين بحزم على كتفيها، وهو يهمس في أذنها: «هذا ممتاز، إنما ينبغي تغييره كله. فليذهبا إلى الجحيم!».

أومأت توافقه الرأي. رفع يديه عن كتفيها، مخلّفاً وراءه أثراً دافئاً رافقها لبضع دقائق. وأخيراً، أعلنت السيدة نيكولسن: «لقد أحببنا المكان».

أومأ السيد نيكولسن برأسه من دون أن ينطق بأيّ كلمة، وعادت زوجته تقول: «الثمن المطلوب يفوق قيمته طبعاً، ونتوقّع منك أن تخفضيه».

- أخشى أن هذا مستحيل!

تساءلت إيفي للحظة من الذي تكلّم. جل ما كانت واثقة منه هو أنها لم تفعل. عندئذ، رأت جاستين. كان يرمق السيدة نيكولسن بتلك النظرة المصممة التي تخيّلت أنه يستخدمها لعقد الصفقات الناجحة. حدّقت إيفي فيه، وقد فقدت قدرتها على الكلام.

تابع يقول: «الآنسة وارتون لا يمكنها عقد أيّ اتفاق. عليكما التعامل مع منفّذ وصية عمها، الملزم بموجب القانون بالقبول بأفضل عرض يقدّم له. لذا، أخشى ألاّ يكون ميالاً لأيّ اتفاقات...».

- لكنني واثقة من أنك تدرك...

- وأنا واثقة من أنكما تدركان أنه لن يُسرّ إذا ما وافقت على سعر أدنى من ذاك المتفق عليه.

- لكن اتفاقاً شخصياً أولاً...

- ستعطيكم الآنسة وارتون رقم منفذ الوصية، وهو سينتظر اتصالكم.

أخذت المرأة الرقم وخرجت وزوجها في إثرها. وقف الثلاثة عند النافذة يراقبون الثنائي وهو يصعد في سيارة يشير حجمها وفخامتها إلى قدرتهما على دفع الثمن المطلوب. التفتت إيفي نحو جاستين ترمقه بنظرات مرعوبة، فرأته أقل ثقة مما اعتاد أن يكون عليه. سألها: «هل بالغت؟».

- لا! كنت رائعاً. لكن كيف...؟

- كانت تحاول أن تستغلك، ولم أستطع أن أدعها تفعل ذلك. أنا خبير في

فن رفض الاستغلال والإكراه.

- أراهن على أنك كذلك.

وتنهدت قبل أن تردف: «لكنني سأضطر لبيعه في النهاية».

- نعم، لكنك كسبت بعض الوقت.

سألها مارك الذي كان يصغي بتركيز تام: «ألا ترغبين في بيعه؟».

لم تتمكّن سوى أن تهز رأسها.

ورد الاتصال من المحامي بعد ساعة، حيث ذكر أنّ السيدة والسيد نيكولسن قدّما عرضاً، لكنه دون سعر السوق. وقال: «رفضت عرضها وسننتظر. أظن أنهما سيزيدان العرض إذا ما انتظرنا.. أم أنك ترين أنّ علي أن أنهي الصفقة الآن؟».

فردّت على الفور: «لا، علينا أن ننتظر».

سألها جاستين ما إن أقفلت الخط: «ماذا حصل؟».

- قدّما عرضاً دون السعر المطلوب، ولم أقبله.

- أحسنت!

فسأل مارك بحماسة: «هل هذا يعني أننا نستطيع البقاء هنا؟».

أجابت مبتسمة: «نعم، ليس علينا أن نرحل الآن».

فصرخ مبتهجاً: «سنستمتع بوقتنا فعلاً».

عانقته قائلة: «هذا صحيح، سنقضي وقتاً رائعاً معاً».

٦ - لن أغفر لك!

توقّعت إيفي أن يشعر مارك بالملل سريعاً من عطلة يقضيها على شاطىء البحر مع شخصين بالغين بعيداً عن مظاهر الحضارة، لكن هذا لم يحصل. بدا متحمساً لأكثر التجارب بساطة، حتى خيّل لها أنها ترى نفسها مجدداً فيه. وفي الأيام القليلة التالية، استمتعوا بوقتهم كثيراً حتى كادت تنسى مشاكلها.

قاموا بعمليات استكشاف، وكان مارك يستمع مسحوراً إلى قصص القراصنة. شعر بسعادة لا توصف حين عثروا على معرض للقراصنة، حيث اشترت له إيفي كتاباً يحمل اسم «انتقام سيمون الأسود»، فراح يقرأه في السيارة وهم في طريق عودتهم إلى المنزل. وفي المساء، غفا وهو يتابع القراءة.

في اليوم التالي، عثر جاستين على صيّاد يملك مركباً كبيراً يتسع لهم فأبحروا على متنه. وبعد يوم أمضوه في الهواء الطلق المثقل بالملح، شعر الكل بالنعاس، وغفا مارك في طريق العودة، وعلى وجهه ابتسامة رضا.

راقبت إيفي كل ما يحصل بسرور، لكن جاستين بقي يحيّرها. بدت رفقته سارة، وسارت الأمور ظاهرياً على خير ما يرام بينه وبين ابنه. لكنها كانت ترمقه أحياناً بطرف عينها لتجد أنّ ابتسامته اختفت وحلّت محلها نظرة تكاد تكون منهكة. كان مارك قد تحدّث عن ظلمة داخل أبيه وبدأت إيفي تستشعر شيئاً من عدم الواقعية. كان جاستين يبذل قصارى جهده، لكنه يتبع قواعد لا يفهمها. وكاد لمرة أو اثنتين أن يفقد تحكّمه بأعصابه من أجل أمر تافه، بدا لها أن عاد وسيطر على نفسه واعتذر، إلاّ أنّ انفعاله لأسباب تافهة أزعجها. إنه يعيش في حالة ضغط مستمرة، وهذا الضغط يمزّقه. لاحظت أنه غالباً ما يراقبها وهي مع مارك، كأنه يحاول يائساً أن يكتشف شيئاً ما.

www.elromancia.com

عادت تقول لنفسها إنّ خيالها جامح، فهو يعمل لساعات طويلة ليلاً ولا بدّ أنه متعب وحسب. عندما وجدت مارك غافياً فيما هو يقرأ، كان جاستين أيضاً يحاول مقاومة النعاس. قالت له وهي تضحك وتتثاءب: «اخلد إلى النوم».

كانت على وشك أن تضيف أنها ترغب أيضاً في الخلود إلى النوم باكراً حين تعالى رنين جرس الهاتف.

راقبها جاستين ومارك وهي ترفع السماعة وترد بمرح، ثم رأيا الابتسامة تذوي عن وجهها. بعدئذ، لم تنطق بسوى بضع كلمات قبل أن تقفل الخط وتستدير لمواجهتهما. قالت: «هذا عمامي العم جو. رفع السيد والسيدة نيكولسن عرضهما فقبل به، وهما يريدان إتمام الصفقة سريعاً كي يستلما المنزل في أسرع وقت ممكن».

كان الفجر يشقّ طريقه عبر العتمة حين نزل جاستين السلالم بهدوء، بهدف الخروج من المنزل والسباحة في البحر باكراً. كان يرتدي سروالاً قصيراً وقميصاً مفتوحاً، إذ بدأت الحرارة في الارتفاع. توجّه نحو الباب متلهّفاً للخروج والغطس في الماء، لكنه توقّف فجأة بعد أن أدرك أنه ليس وحيداً.

كانت القامة المستلقية على الأريكة جامدة بحيث لم يلاحظها في بادىء الأمر. اقترب أكثر وهو يجهل ما عليه أن يفعله. افترض أنّ عليه أن يتركها، لكنه وبدلاً من أن يفعل ذلك، ركع على ركبتيه قربها.

بدت كأنها كانت تبكي، إنما لعل الضوء الخافت يخدعه. كانت على وشك البكاء في الليلة الماضية بعد أن تلقّت ذاك الاتصال، إلاّ أنها تمالكت نفسها على الفور، وأصرّت على أنّ كل شيء على ما يرام. خطر له أنه مخطىء، وأن الأمور ليست على ما يرام فيما هو ينحني نحوها أكثر ويلاحظ كيف اختفت وقاحتها الباسمة. رأى الآن التوتر خلف الضحكة، وأدرك أنها هي أيضاً لا تدع العالم يرى ما في قلبها تماماً كما يفعل هو.

من دون سابق إنذار، فتحت إيفي عينيها ونظرت إليه مباشرة، فجمد للحظة مذهولاً. وأخيراً، قال بنعومة: «أنا آسف. شعرت بالقلق عليك».

- لماذا؟

- أنت تعيسة.

- أنا بخير.

هزّت رأسها، ثم فركت عينيها، وسألت وهي تلتفت من حولها: «ماذا أفعل هنا في الأسفل؟».

- ألا تذكرين؟

- بلى، بلى. بقيت مستيقظة إلى وقت متأخر ثم غفوت. كنت أتجول في المكان وأتذكر كل ما فيه. لا يزال يبدو كما كان حين جئت إلى هنا للمرة الأولى.

وقفت على قدميها إلاّ أن أطرافها بدت متشنجة ولم تقوَ على حملها، ما جعله يمدّ يده ليساعدها فاستندت إليه. سألها: «كيف كان حينها؟».

- وجدته سحرياً... الحجر المرصوف، المدفأة، النوافذ الصغيرة القديمة. عندما دخل مارك إلى هذه الغرفة في المرة الأولى، أحسست كأني أشاهد نفسي مجدداً، مليئة بدهشة وعجب الطفولة. وبقي المكان رائعاً بنظري حتى حين كبرت. كنت أحب القدوم إلى هنا والإقامة مع العم جو... إنها أسعد لحظات في حياتي... أردت أن أحتفظ بها إلى الأبد، كما فعل هو...

وأصبح صوتها أجش تدريجياً حتى اختنق كلياً، فمسحت عينيها بقفا يدها.

قال جاستين: «اسمعي! سنفعل شيئاً ما حيال ذلك، فلا تبكي...».

ردّت على الفور: «أنا لا أبكي، لا أبكي أبداً».

فهمس: «أرى ذلك».

- ما يزعجني هو أنّ تلك... تلك المرأة الكريهة ستغيّر كل ما في المنزل، وأنا لا أريد ذلك، لكنني لا أستطيع أن أمنعها لأنّ البيت سيصبح لها...

ودفنت وجهها بين يديها فيما ارتعشت كتفاها.

قال بلطف: «أظنك تبكين».

- لا، أنا لا... نعم، أنا أبكي... اللعنة!

فقال وهو يأخذها بين ذراعيه، بحيث أسندت رأسها إلى كتفه بشكل

طبيعي: «هذا أفضل ما يمكن القيام به عادة».

لم تجب إيفي، إذ لم تكن ترغب في مناقشته أكثر. جلّ ما أرادته هو أن تطلق العنان لكل تلك الدموع التي لطالما حبستها منذ أن أدركت حجم خسارتها.

فاجأها جاستين بلعب دور المعزّي المثالي، فاحتضنها بصبر وتركها تستند إلى جسده الدافىء، القوي فيما هي تبكي. أما هي، المرأة التي تقدّر استقلاليتها وتجرّدها، فتمسّكت به كأنه أملها الأخير. إلاّ أنها بدأت أخيراً تستعيد وعيها ورباطة جأشها، فتحركت لتبتعد عنه.

قالت بعدم لباقة: «لا أدري.. ما الذي حصل لي، فأنا لا أفعل هذا عادة».

- لست كذلك طبعاً. لكن عليك ألاّ تحاولي أن تحلّي أمورك بنفسك دوماً. أما من أحد قادر على مساعدتك؟

- ليس لديّ أقارب.

- وماذا عن أندرو؟ أليس محاسباً؟

- نعم، لكن...

- إذاً، لمَ لم يضع لك أيّ خطة مالية ممتازة... حيلة ضريبية أو شيئاً من هذا القبيل؟ ما الهدف من علاقتك بمحاسب إن لم يكن قادراً على العبث بدفاتر الحسابات من أجلك؟

تذكرت أنها أخبرت أندرو عن المنزل، فنصحها بأن تنتظر أفضل عرض، لكنه لم يفكّر في طريقة لمساعدتها على الاحتفاظ به.

حثّها جاستين قائلاً: «لمَ لا تستشيرينه؟».

- أنت محق، سأتصل به الآن. سيكون نائماً في مثل هذه الساعة.

إنه عذر مثالي للاتصال به وسؤاله عن موعد حضوره. أمسكت بالهاتف ثم طلبت رقم شقة أندرو. استمر رنين الهاتف لبعض الوقت قبل أن يجيب وقد بدا صوته مكتوماً بعض الشيء.

مازحته قائلة: «مرحباً أيها الناعس».

ساد صمت مطبق، لكنها رفضت أن تفهم معناه. وأخيراً قال: «إيفي؟».

سألته: «ومن سيتصل غيري؟».

حاولت أن تضحك، رغم أنّ شيئاً ما في داخلها لم يكن يضحك أبداً.

- أنا... حسناً...! لا أعلم.

- إنني في المنزل الواقع على البحر لبضعة أيام. ستحب هذا المكان فعلاً.

- حسناً... في الواقع، أردت أن أتحدث إليك عن هذا... أنا أعني، حال الأمور مؤخراً...

وتوقّف عن الكلام بشكل أخرق، فتناهى إليها صوت جعل الدم يجمد في عروقها.

إنها قهقهة!

إنها قهقهة فعلاً وليست ضحكة خافتة بل قهقهة امرأة شابة في مزاج جيد جداً لسبب أو لآخر.

قال صوت قرب أندرو بتودد: «هيا يا عزيزي، لا تطل التحدّث على الهاتف».

وتحدّث أندرو بصوت خافت: «إيفي، أما زلت معي على الخط؟».

- نعم. لن أفوّت هذا.

- آمل ألاّ تتصرفي بتهوّر. على أيّ حال، أنت من يعتذر عادة مني...

- ليس لأنني أخونك مع شخص آخر.

- حسناً...! لم تكن الأمور تسير على ما يرام في ما بيننا، وظننت أنك لن تمانعي...

فقاطعته بنبرة متوترة: «لا تملي عليّ ما ينبغي أن أقبل به أو لا أقبل».

- أنا آسف، لكن خروجي مع شخص يضعني في المرتبة الأولى في حياته تغيير جيد. أنت لم تفعلي هذا أبداً. وإذا ما فكرت في السبب الذي يجعلك لا تعتبريني من أولوياتك لأدركت أن هذا ليس مهماً حقاً.

فتحت فمها لتجيب لكنها عادت وأطبقته. وفيما هي تختار كلماتها انقطع الخط. لقد أقفل الخط في وجهها.

- أندرو! أندرو!

أقفلت الخط وقد جعلتها الصدمة تشعر بدوار. خرج جاستين من المطبخ بعد أن انسحب إليه ليمنحها بعض الخصوصية، فوجدها تحدّق في الفراغ. سألها بلطف: «ألا يستطيع مساعدتك؟».

- لم أطلب منه ذلك حتى. انتهى الأمر... لن يأتي إلى هنا.

وضحكت بشكل أخرق قبل أن تردف: «أفترض أنه لم يفكر قط في القدوم، أليس كذلك؟».

وافقها جاستين بلطف: «أظن ذلك».

- أنا بلهاء. كان عليّ أن أدرك ذلك من قبل. إنه في السرير مع امرأة أخرى.

وقف إلى جانبها: «ألم تشكّي في الأمر يوماً؟».

فأجابت ساخرة من نفسها: «لا، كنت مغرورة جداً، بحيث أرى الأمور من وجهة نظري فقط. ظننت أننا سنمضي وقتاً رائعاً هنا، وسأعترف له بحبي، وستسير الأمور على خير ما يرام. لكن الأمور لا تسير على هذا النحو، أليس كذلك؟».

- لا! لا أظن.

لامس جاستين وجهها بأصابعه، وأرجع شعرها إلى الخلف، ثم وضع ذراعيه حولها قائلاً: «هيا يا إيفي، لم ينفطر قلبك. فأنت لا تحبينه بجنون، ولم تحبيه يوماً بجنون».

فقالت بسخط شديد: «أنت سيء بقدره، إذ تقول لي كم أنا غبية».

ارتسم على وجهه تعبير استياء، وقال: «عندما تكون المرأة مغرمة فعلاً فهذا يبدو جلياً على وجهها، ولا تنسى الرجل الذي تحب ولو للحظة. هل يمكنك أن تقولي بصدق إنك لا تنسينه أبداً؟ كوني صادقة يا إيفي.. أنت بالكاد تتذكرينه».

لقد تجاوز الحد الآن! تململت إيفي لتحرر نفسها، لكن ذراعيه اشتدّتا من حولها، فاستشاطت غيظاً لأنه تجرأ على إبقائها سجينة. تابع جاستين كلامه بقسوة: «كما أنه لم يتذكّرك أيضاً، لأنّ الرجل حين يحبّ المرأة تبقى معه دوماً، في عقله وقلبه، في كل لحظة من حياته».

- دعني...!

- هل يمكنك أن تشعري بلمسته حتى وأنت على بعد أميال منه؟ هل التفكير فيه يثير أحاسيسك؟ لا أظن ذلك.

- كيف تجرؤ...؟

حاولت أن تتحرر منه لكن من دون فائدة. بدا وجهه جامداً، واستطاعت أن تشعر بأنفاسه الدافئة على خدها. أغضبها أن يكتسح إحساس جميل جسدها كله، فيجعلها تنظر إليه بطريقة كانت تفضل ألاّ تعرفها في هذه اللحظة بالذات.

- هل عناقه يفجّر مشاعرك يا إيفي أم أنك لا تتذكرينه حتى؟

بالكاد سمعت كلماته الأخيرة التي همسها، فيما رأسه ينحني نحوها. عرفت ما سيفعله، لكنها رفضت أن تصدّق ذلك حتى عانقها.

لم تشأ أن تواجه حقيقة ما يحصل. من المستحيل أن يثير هذا الرجل الغريب، المتبجح، المغرور مشاعرها، ويرسل قشعريرة لذيذة في جسمها كله. هذا مستحيل، مستحيل! عليها أن تتمسك بهذه الفكرة.

حاولت أن تتقوقع على نفسها وأنّ تتجاهل مشاعرها، إلاّ أن جسدها خانها إذ أصرّ على أن يتجاوب مع كل شعور انتابها. وانضم قلبها إليه، فتسارعت دقاته كما لم تفعل قط من قبل، وكأنه متحالف مع جاستين. وفيما عقلها يرغي ويزبد استياءً واستنكاراً، تاق جسدها إليه أكثر وأكثر.

أخيراً، خفف جاستين من احتضانه لها بما يكفي كي تنسحب. راحت تتنفس بثقل بفعل الغضب وشعور آخر... قالت لاهثة: «أحذرك! إن لم تتركني في الحال، فسأفعل ما يجعلك تندم على تصرفك».

سيفقد الآن أعصابه، وستشعر هي بالرضا لأنها تمكّنت من جرّه إلى شجار. كانت تتطلع إلى ذلك بكافة جوارحها، وبطريقة جديدة وعنيفة وصادمة. إلاّ أنّ جاستين خيّب أملها، فلم يقم بأيّ ردّ فعل غاضب ولم يصرخ بها، بل اكتفى بالنظر إليها مرتبكاً ومشوّشاً. قال: «أنا آسف، لا أعلم ماذا... أردتك وحسب أن تفهمي أنّ هذا الرجل... أنك لا...».

- ويُفترض بي أن أرتمي عند قدميك، أليس كذلك؟

- لا، هذا...

- يا لوقاحتك! تعتقد أنني لا أكنّ له أيّ مشاعر لأنّ هذه الفكرة تناسبك. لقد فقدت لتوي الرجل الذي أحب. أفترض أن فكرة أن أكون مفطورة القلب لم تخطر في بالك أبداً.

فأجاب: «كنت لأفعل لو أنك امرأة مختلفة».

- ليس لديك أيّ فكرة أيّ نوع من النساء أنا.

- ما أعرفه هو أنك امرأة تحسن الحكم على الأمور...

ردّت بحدة وقد شعرت بالإهانة: «شكراً جزيلاً لك!».

رفع يده قائلاً: «الآن، ما الخطأ في ما قلته؟».

وبما أنها غير مستعدة لأن تجيب عن هذا السؤال، اختارت أن تغيّر خطتها. لكنها لن تغفر له إهانته واتهامه لها بحسن الحكم على الناس والأمور.

- أنت تظن أنك تعرف كل شيء.. لكن هذه حياتي، وأنا أقرر ما أشعر به...

فقال: «يمكنك أن تقرري لو كنت تفكرين بشكل قويم. اسمعي! سأقول لك رأيي وبشكل مباشر: لقد تخلّصت منه، وهذا من حسن حظك. كان وجوده في حياتك إضاعة للوقت».

- أنت لم تلتقِ به يوماً.

- هذا صحيح، ولكنه لا يتواجد حين تحتاجين إليه. كنت قلقة للغاية لأنك ستفقدين بيتك، فماذا فعل؟ لا شيء، كان منشغلاً بالعبث مع امرأة أخرى، هذا ما كان يفعله. لم يقم بعمل واحد ليساعدك.

- هذه ليست مشكلته...

- من المفترض أن تكون كذلك.

- حسناً! لقد أربكته بإرسال إشارات خاطئة.

قال جاستين باشمئزاز شديد: «أرجوك! ماذا حصل للمرأة المستقلة التي ظننت أنني أعرفها؟».

- إنها في عطلة الليلة!

- ستعطلين حياتك كلها إذا ما استمريت بالتحدّث على هذا المنوال. لمَ عليك أن تلقي اللوم على نفسك؟

- هل لمت نفسك يوماً على شيء ما؟

- ليس إذا تمكنت من تجنّب ذلك.

- أصدق كلامك هذا.

اعترف قائلاً: «على المرء أن يعترف أحياناً بأنه أخطأ، لكن وحده الغبي يسارع إلى ذلك».

- عظيم! والآن أصبحت غبية.

- لن أجيب.. بما أنّ كل ما أقوله يبدو خطأ.

- وأخيراً لاحظت.

أدركت إيفي أن كلامها غير منطقي، لكن أعصابها خانتها.

قال بشيء من الصبر المبالغ فيه الذي قد يدفعها إلى القتل: «اسمعي! جلّ ما فعلته هو أنني عانقتك. أردت أن أجعلك تشعرين بتحسّن...».

- أيها المدّعي...

- أردت أن أجعلك ترين الأمور من زاوية جديدة. لعلني تصرّفت بشكل أخرق... حسناً! نعم، كنت أخرق، لكنني... تباً!

ابتعد عنها وهو يشدّ بشعره، لكنه سرعان ما عاد والتفت ليواجهها.

- حسناً! لقد أسأت التصرّف. لكن إذا استطعت أن تصفّي ذهنك بما يكفي لتفكّري في المسألة...

- ها أنت تعاود الكرّة. حتى اعتذارك هو إهانة مبطّنة...

- إذا لم تصمتي فسأعانقك مجدداً.

- هذا تهديد سيجعلني أطبق فمي لسنوات.

أخذ نفساً عميقاً، فيما بدا وجهه عاصفاً من شدة الغضب، فتساءلت للحظة إن كان سينفذ تهديده. لكنه لم يفعل. وبدلاً من ذلك، حمل المنشفة من حيث وضعها على الكرسي وخرج من المنزل كالعاصفة.

صعدت إيفي السلالم ركضاً، واستطاعت أن تشاهد جاستين من نافذتها

وهو يركض على الرمل متجهاً نحو البحر. كان قد خلع قميصه، ما ذكّرها بشعورها حين أخذها بين ذراعيه، وضمها إلى صدره.

لم تشعر قط من قبل بهذا القدر من الغضب تجاهه. لقد حاول أن يملي عليها تصرفاتها، وتجرأ على أن يلقي ضوء المنطق على علاقتها بأندرو، وعانقها.

ارتمت على سريرها محاولة أن تتخلص من الدوامة التي تدور في داخلها. إنه محق.. إنه محق طبعاً! ألم تدرك دوماً أنّ علاقتها بأندرو ليست كاملة، لأنها لطالما كبحت جزءً من نفسها؟ ألم تدفع بنفسها أندرو بين ذراعي امرأة أخرى؟ سمعت مارك يتحرك في الغرفة المجاورة فأجبرت نفسها على أن تهدأ. وعندما وصل الفتى إلى الأسفل، كانت قد سبقته وبدأت بتحضير الفطور، وهي تبتسم.

- أين أبي؟

- خرج باكراً ليسبح.

- هل يمكننا أن نلحق به نحن أيضاً؟

- تناول الفطور أولاً.

عاد جاستين بعد بضع دقائق، فألقى عليهما التحية وقال: «عليّ أن أتغيب لبضع ساعات اليوم».

لم ينطق مارك بأيّ كلمة، بل اكتفى بالنظر إلى أبيه بوجه متوتر.

سأل جاستين موجهاً الكلام إلى كليهما من دون أن يخص أحدهما بحديثه: «هل من مشكلة؟».

قالت إيفي: «لا بأس، سنمضي أنا ومارك يوماً ممتعاً معاً، أليس كذلك يا مارك؟».

وعندما لم يجبها التفتت إليه لتجده يحملق في والده: «هل ستغيب طويلاً يا أبي؟».

فردّ بلطف: «أعدك بأن أعود غداً».

- إلى أين ستذهب؟

- هذا سرّ. لكن عندما أعود، سأحضر لك مفاجأة أظن أنها ستعجبك.

أومأ مارك برأسه وقد بدا راضياً، فشعث جاستين شعره قبل أن يصعد إلى الطابق العلوي ليبدّل ملابسه.

للحظة تملكت إيفي الرغبة في أن تلحق به، لكنها رأت أن من الأفضل ألاّ تفعل. وبعد حين، عاد إلى الأسفل، وقد ارتدى ملابس رسمية وحمل حقيبة أوراق. بدا رجلاً مستعداً للعمل، تماماً كما عرفته في البداية. وعندئذ، فهمت لما سأله مارك إن كان سيعود، فقد أدرك أنّ العطلة انتهت بالنسبة إلى أبيه. بعد بضع ساعات، سيتصل جاستين هاتفياً ليقول إنه سيبقى في لندن ويطلب منها مرافقة مارك إلى المنزل.

حسناً! لن تتخلى عن ابنه حتى لو فعل هو ذلك.

ودّعاه وأمضيا اليوم على الشاطىء. ولم يأتِ أيّ منهما على ذكر جاستين. في المساء، اتفقا على لعب الشطرنج، فقررت إيفي في بادىء الأمر أن تدع مارك يربح مرة أو اثنتين، وانتهى بها الأمر وهي تسعى جاهدة كي تهزمه ولو لمرة واحدة. عيناه اللامعتان أعلمتاها أنه تابع مجرى أفكارها.

ضحكت معه وهي تفكر كم يشبه جاستين. بدا فمه مختلفاً، أكثر لطفاً مع لمسة من الحلاوة، إلاّ أن أنفه يشبه أنف أبيه تماماً. أنف حاد وبارز في وجهه.

فجاة رنّ جرس الهاتف، فركض مارك ليكون أول من يجيب: «أبي؟ متى ستعود إلى المنزل؟ حسناً... ! سأعطيك إيفي... ! حسناً، سأخبرها».

ووضع السماعة مكانها.

- لم يتمكن أبي من التحدّث إليك لأنه على عجلة من أمره، لكنه يقول إنه سيعود غداً صباحاً.

أزعجتها عقدة قلق صغيرة تكوّنت في أحشائها، وكأنها مسرورة بعودته أو حتى سعيدة، رغم أنّ كلمة سعيدة مبالغ فيه.

قررا أن يخلدا إلى النوم، فاستلقت إيفي في الظلام وحاولت أن تركز انتباهها على أندرو، متسائلة إلى أيّ مدى يناسبها أن تكون مفطورة القلب. وبعد حين، قررت ترك المسألة، فكيف يمكنها أن تبكي رجلاً لا تستطيع أن تتذكر ملامح وجهه؟

استيقظت في وقت مبكر بعد أن سمعت أصواتاً في الطابق السفلي، فهبّت من سريرها على الفور وارتدت عباءة خفيفة فوق ملابس النوم ثم نزلت السلالم بهدوء. كان الصباح ينشر نوره بسرعة فتمكّنت من أن ترى الرجل الذي وصل لتوه.

نادته بنعومة: «جاستين؟».

- نعم، انزلي. لديّ ما أقوله لك.

سألته بقلق بعد أن سمعت نبرته: «يا إلهي، ماذا حصل؟».

أسرعت في النزول فرأته يبعثر محتويات حقيبته. بدا متعباً وذقنه غير حليق.

- هل قدت سيارتك طيلة الليل؟ تبدو منهكاً.

قال بنبرة تكاد تعكس نفاد صبره: «لا تقلقي. ثمة ما أريد أن أريك إياه».

- أهذه هي المفاجأة التي وعدت مارك بها؟ هل أحضره؟

- لا حقاً. أريدك أن تريها أولاً.

- أنت تثير قلقي.

- لا حاجة للقلق. ها هو.

وعثر على مغلف كبير في حقيبته فأخرجه قائلاً: «هذا لك».

- ما هذا؟

فقال باقتضاب: «افتحيه».

في بادىء الأمر تراقصت الكلمات أمام عينيها، ثم قرأت عنوان منزلها، وأخيراً قالت: «لقد بيع! أتعني أنّ عائلة نيكولسن أنهت الأمر بهذه السرعة؟».

- لا دخل لهما في المسألة. هذا أنا. اشتريت هذا المكان بالأمس.

- ماذا؟

ثم رأت المبلغ المدفوع: «كم؟».

كان السعر أكبر بخمسين ألف جنيهاً من السعر المطلوب.

قالت لاهثة: «لم تدفع هذا المبلغ حقاً أليس كذلك؟».

- اضطررت إلى ذلك. عندما سمع الزوجان نيكولسن بعرضي قررا زيادة عرضهما، وهذا ما لم أتوقعه نظراً لأنهما حاولا الحصول عليه بأبخس الأثمان.

لكن ما إن قررا الحصول عليه حتى صمما على عدم التخلي عنه، فدارت حرب مزايدة بيننا، لكنني فزت لأنني استطعت الصمود لمدة أطول.

فقالت وهي تشعر بدوار: «نعم.. أتخيّل ذلك. لكن لماذا...؟».

- اقرأي الورقة الأخرى وهي ستعلمك بالسبب.

الوثيقة الثانية كانت صك نقل ملكية يجعل من المنزل ملكاً لها. همست: «لم أفهم».

- لا بد أن الوثيقة واضحة بما يكفي؟ البيت لك. لقد اشتريته، وهو لك الآن.

من المفترض بها أن تشعر بموجة من الامتنان، إلاّ أن شعوراً قديماً تملّكها أشبه بشبكة تأسرها. لم يفعل هذا من أجلها بل لأسبابه الخاصة. وسألته: «لكن.. لمَ تعطيني إياه؟».

بدا كأن صبره عيل أكثر: «هل السبب مهم؟ المهم هو أنه أصبح لك، وأنك لست مضطرة إلى تركه الآن. وبما أنني دفعت المبلغ المتبقي سيتبقى لك الكثير من المال بعد تسديد الديون. إنها صفقة جيدة جداً لك».

فقالت بصوت بدا حاداً فجأة: «نعم، إنها جيدة. أليس كذلك؟ وأرى أنك دفعت المبلغ المتبقي حقاً».

- عليك أن تفعلي هذا أحياناً، إذا كانت هذه الوسيلة الوحيدة للحصول على ما ترغبين فيه.

فقالت ببطء: «أدرك هذا. هذا مثير للإعجاب، طريقتك في منع أيّ شخص من التغلّب عليك.. أبداً».

لفته شيء ما في طريقتها في الكلام، فاستدار ونظر إليها عابساً، مشوشاً.

- إيفي، ألا تفهمين؟ المنزل لك، ويمكنك الاحتفاظ به إلى الأبد. هذا ما أردته. أليس لديك ما تقولينه لي؟

رفعت نحوه عينين تعكسان غضباً وبغضاً مكبوتين، وقالت بعنف: «نعم، لديّ ما أقوله لك. لن أغفر لك هذا طالما حييت».

www.elromancia.com

٧ - ليس ذنبك!

حملق جاستين فيها: «هل سمعتك جيداً؟».

- أظنك فعلت. ماذا توقّعت؟ الامتنان؟ حسناً، لعلني كنت لأشعر بالامتنان لو أنني لا أعرف الدافع الحقيقي خلف هذا.

جاء صوته قاسياً: «وما الدافع برأيك؟».

- السيطرة. الكسب. أنا مفيدة لك من أجل مارك، وإذا وجدت ما هو مفيد لك فأنت تحرص على ألاّ يفلت من يديك، أليس كذلك؟ ولهذا تشتريه.

شحب وجهه: «هل هذا ما تعتقدينه؟ أتظنين أنني أحاول أن أشتريك؟».

- وهل من سبب آخر؟ إنها الصفقة المثالية التي تتم بأفضل الشروط... وأهمها السرية، بحيث لا يعرف الشيء المكتسب إلاّ بعد فوات الأوان.

صرخ بها: «حاولت أن أمنحك شيئاً ما، شيئاً ظننت أنك تريدينه. أخبرتني كم تحبين هذا المكان».

- كنت أتكلم بشكل عام، ولا أحتال للحصول على حسنة.

- كنت بالأمس تبكين لفكرة فقدانه.

فقالت بنبرة خطرة: «لا تذكرني بيوم أمس».

الطريقة التي عانقها بها، كأنه يؤكّد قوته وسلطته لا تزال تعتمل في صدرها، فتثير فيها شعوراً بالضغينة نحوه، تدفعها لجلده بلسانها السليط. ستفكر في الأمر لاحقاً، فجلّ ما تعرفه الآن هو أن قلبها شعر بانزعاج مرتبط بشكل غامض بالغضب ما إن وقعت عيناها عليه.

قال بحدّة: «المنزل لك الآن، فافعلي به ما يحلو لك».

- لا أستطيع. هذا ليس صائباً، وينبغي ألاّ يحصل.

- لا يمكنك إيقاف العجلة، فعملية البيع قد تمت.

قالت: «لا يمكنني قبول المنزل كهدية، كما لا أستطيع أخذ كل ما تبقّى من مال. ما إن يُدفع المال للمحامي، ويتم تسديد الديون حتى أطلب منه إعادة ما تبقّى لك».

صرخ بها: «هذا سخيف! هل فقدت رشدك؟».

- ربما! لكنني ما زلت أحترم نفسي بما يكفي كي لا أقبل منك أيّ إحسان.

سمعته يأخذ نفساً حاداً، ورأت النظرة البشعة التي ظهرت على وجهه. مدت يدها بالأوراق، فأخذها منها بعنف قائلاً بنبرة أشبه بفحيح أفعى: «اذهبي إلى الجحيم، وابقي هناك!».

من شدّة توترهما وغضبهما، لم يلحظا مارك الذي وقف يتأملهما من أعلى السلالم، كما لم يسمعا الصوت الخافت الذي أحدثه وهو ينسحب ليعود إلى سريره. بدا للحظة كأن جاستين يتوقّع منها أن تستسلم، وعندما لم تفعل، اكتفى بالخروج من الغرفة لتسمع بعد لحظات صوت سيارته وهي تنطلق. فارتمت على السلالم وهي ترتجف بقوة. تساءلت عمّا حدث لها، وجعلها ترفض هديته. فالاحتفاظ بهذا المنزل هو أعز أمانيها، وقد أصبح لها الآن، إذا ما تمكنت وحسب من كبح كبريائها بعض الشيء.

لكن ما من قوة على وجه الأرض قد تجعلها تنحني من أجل هذا الرجل. نبرته المقتضبة الفظّة وهو يشرح لها الأسلوب الذي اتبعه، طريقته في القضاء على أيّ معارضة، أسلوبه في رشّ المال من حوله، أخبرتها كل ما تحتاج إلى معرفته عن دوافعه. وما زاد الأمور سوءاً هو أنّ إحدى زوايا قلبها بدأت تكن شعوراً ما لهذا الرجل. لو فعل هذا بدافع الصداقة لاستسلمت لرغبتها في قبول الهدية، لكن جاستين داين لا يتصرّف بدافع الصداقة.

عادت إلى غرفتها واستلقت في سريرها من دون أن تتوقّع أن تنام. إلاّ أن الشجار جرّدها من قوتها فنامت نوماً مضطرباً. وعندما استفاقت، كانت الشمس في كبد السماء، لكن سيارة جاستين لم تعد.

نظرت إلى الخارج، فرأت مارك يجلس بعيداً جداً على الصخور. ارتدت

ملابسها، ولحقت به مستعدة لتأنيبه على خروجه وحده، إلاّ أن الكلمات ذبلت على شفتيها عندما رفع نحوها عينيه ورأت التعاسة على وجهه. خطر لها أنه يبدو كما عرفته في البداية. قالت بنبرة مرحة: «مرحباً! خرجت باكراً. هل من شيء يثير الاهتمام في البركة؟».

- بعض سرطانات البحر.. ليس بالكثير.. أردت وحسب أن أفكر قليلاً.

- حسناً! هذا هو المكان المناسب. هل توصّلت إلى شيء ما؟

هزّ رأسه، وقال بكآبة: «التفكير لا يساعد، وهو لا يغيّر الأحداث».

وخطر لها أنه أصغر سناً من أن يؤمن بذلك. قالت بعد أن عجزت عن إيجاد كلمات حكيمة: «من الأسهل أن نفكّر ونحن نشعر بالشبع. أترغب في تناول الفطور؟».

أومأ برأسه إيجاباً قبل أن يسأل: «هل يمكننا بعدئذ أن نعود إلى هنا؟».

- نعم. سنمضي اليوم هنا.

انتظرت منه أن يسألها إن كان أبوه قد عاد، لكنه لم يفعل.

بعد الفطور، عادا إلى الشاطىء، واستكشفا البحيرات التي تشكّلت بين الصخور. فجأة قال مارك: «ها هو أبي!».

رأيا جاستين يسير على الرمال متجهاً نحوهما. ابتسم لمارك ثم وجه ابتسامته نحو إيفي. ألقى مارك التحية على أبيه بلطف إنما من غير حماسة، كما لم يسأله عن المفاجأة التي وعده بها. تذكّرت إيفي مقدار تعاسته هذا الصباح، وعلمت أنها لا تزال حاضرة، وإن كانت مخفية خلف ابتسامة مهذبة.

مضت الأمور على هذا المنوال طيلة النهار. ظاهرياً، كانت الأمور هادئة إلاّ أن التوتر بقي كامناً، ومكبوتاً قدر الإمكان. وفي المساء، أصرّ جاستين على اصطحابهما إلى مطعم.

اختار جاستين مطعماً أنيقاً ومكلفاً، فارتدوا الملابس المناسبة. وراحت إيفي تتساءل عما دفعه إلى ذلك، إلاّ إنها أدركت أنّ الارتباك والحرج السائدين بينهم خفّا نسبياً، في هرج ومرج العاملين في المطعم والخيارات التي ينبغي القيام

بها. أنّبت نفسها بسبب تركيزها عليه وعلى دوافعه، وقررت أن تقصيه نهائياً عن ذهنها. إلاّ أنّ هذا بدا صعباً، لاسيّما أنه يلفت أنظار الآخرين بسهولة. فإلى طاولة قريبة، جلست امرأتان بدا أنهما مأخوذتان بجاستين، حيث راحتا تتأملانه، محاولتان لفت انتباهه، مبتسمتان إذا ما صادف أن التفت نحوهما.

كانتا جميلتين بحيث يفخر أيّ رجل بالخروج معهما، وقد بدتا مستعدتين لتلبية رغبات جاستين إذا ما أراد، لكنه لم يظهر أيّ اهتمام بهما. كان على إيفي أن تعترف بكياسته، إذ منحها هي ومارك اهتمامه كله. وجدت نفسها مجبرة على أن تراه بعيونهما، كرجل جذاب ذي حضور يتجاوز حدود المظهر الحسن، وبدأت تتذكر أموراً كانت تفضّل أن تنساها: الأيام التي أمضياها على الشاطىء وهو ممدد قربها. تلك اللحظات القصيرة من عناقه لها. ما من فائدة من القول إنها لم تكن ترغب في ذاك العناق، ذلك أن جزءً منها أراده فعلاً، إلاّ أنها تُفضّل أن تموت قبل أن تدعه يدرك أو حتى يشتبه بذلك.

تدفّقت الأفكار والذكريات... تذكرت كيف استفاقت على الأريكة لتجده راكعاً قربها يسألها بلطف عن سبب حزنها. لطفه غير المتوقّع لامس قلبها، وجعلها ضعيفة أمامه. إلاّ أنه حاول بعدئذ أن يستغل الوضع لمصلحته... سألها مارك: «هل أنت بخير؟».

- نعم.

وصلوا إلى المنزل في وقت متأخر، وبدا مارك عاجزاً عن إبقاء عينيه مفتوحتين. وعندما اقترحت عليه إيفي أن يخلد إلى النوم وافق من دون أدنى اعتراض. تمنّى جاستين لابنه نوماً هنيئاً، وفتح جهاز الكمبيوتر الخاص به على الفور. قالت إيفي: «أظن أنني سأخلد أنا أيضاً إلى النوم».

- حسناً! تصبحين على خير.

تأمّلت رأسه من الخلف بغيظ، وقالت: «تصبح على خير».

قصدت غرفة مارك وجلست على حافة سريره قبل أن تسأله: «لم تستمتع بوقتك اليوم. أليس كذلك؟».

هزّ رأسه: «كان الوضع كما اعتاد أن يكون».

- اعتاد أن يكون . . متى؟

- قبل رحيل أمي . حافظا هي وأبي على تهذيبهما ، لكن الوضع بدا فظيعاً .

عبست إيفي . لِمَ لم يخطر هذا في بالها؟

- أنا آسفة يا مارك . كنّا في مزاج سيء ، لكن هذا لا يعني شيئاً . لا تقلق . نم الآن ، وستكون الأمور على ما يرام في الصباح .

لكن عندما استلقت في سريرها ، وأطفأت النور ، تساءلت إن كان ما قالته صحيحاً . كيف يمكن للأمور أن تكون على ما يرام بعد ما حصل؟

استلقت لبعض الوقت تحاول أن تنام ، لكنها كانت في الواقع تنصت علّها تسمع وقع أقدام جاستين على السلالم . وبدلاً من ذلك ، سمعت صوتاً من الغرفة المجاورة جعلها تجلس في سريرها . ها هو يتكرر . . . نحيب من غرفة مارك . وما هي إلاّ لحظة حتى فتحت باب غرفته ، لتجده جالساً وعيناه مغمضتان والدموع تسيل على وجنتيه . قالت وهي تأخذه في أحضانها : «مارك ، ما الأمر يا عزيزي؟» .

شهق قائلاً : «أمي ! أمي !» .

شدّته إلى صدرها ، فشعرت بالجسم النحيل يرتعش بؤساً . لم ينطق بأيّ كلمة أخرى ، بل اكتفى بالاستناد إليها وهو يبكي بكاءً مراً . وأخيراً ، شعرت بيديه تشدّان على ذراعيها . قال من بين دموعه : «أنا آسف» .

- لا داعي للأسف . أرجوك أخبرني ما الأمر . هل راودك حلم مزعج؟

- لا ! كان حلماً جميلاً .

- هل هو عن أمك؟

أومأ برأسه المستند إلى كتفها ، فهمست : «أنت تفتقدها طيلة الوقت ، أليس كذلك؟» .

- تسوء الأمور ليلاً ، لأنني أحلم بأنها حيّة ، حيث تعود إلى المنزل وإليّ ، وتقول إنّ ما حصل مجرد خطأ ، وإنها لم تتعمّد الرحيل من دوني . عندئذ ، نرحل معاً ، وأحياناً تبقى معي في المنزل . تلك كانت غلطة . لم تشأ فعلاً أن تتركني ، لأنها ما كانت لتفعل ذلك .

ارتفع صوته وهو يقول كلماته الأخيرة ، ثم دفن رأسه في صدرها وهو يرتجف . همست إيفي : «لا يا عزيزي ، ما كانت لتفعل» .

تدريجياً بدأ مارك يهدأ ، لكنها بقيت تجلس قربه ساكنة بحذر لأنها سمعت صوتاً خافتاً من جهة الباب .

قال مارك : «كانت لتعود من أجلي لو لم تمت» .

- بالطبع ! أنت تعلم أنها كانت تفكر فيك طيلة الوقت .

- أحقاً؟

- نعم .

- إذن ، لِمَ لم تعد إلى المنزل؟ أتظنين أن أبي منعها؟

أجابت على الفور : «لا ! أعلم أنه ما كان ليفعل ذلك» .

- أنت لا تعلمين حقاً .

- بل أعلم . ما كان ليُقدم على تصرف يؤذيك . عليك أن تصدّقني يا مارك .

- لكنه رفض إعادتها إلى الوطن عندما ماتت .

- هذا مختلف . عندما كانت على قيد الحياة . . .

وسكتت . لا يحق لها أن تكرر لمارك ما قاله لها جاستين . وبعد لحظة ، أدركت أنها لا تحتاج إلى قول المزيد فقد غفا الفتى بين ذراعيها . وضعته في سريره بلطف ، وأحكمت وضع الغطاء عليه ، ثم طبعت قبلة على خده قبل أن تنسل بهدوء من الغرفة وتقفل الباب .

لم يكن الممر مضاءً ، إلاّ أن نور القمر المتسلل عبر النافذة مكّنها من أن ترى جاستين يقف هناك ، مستنداً إلى الحائط من دون حراك ، ورأسه إلى الخلف .

همس : «انتظرتها عند النافذة أسبوعاً بعد أسبوع» .

- جاستين . . . !

- وقفت هناك لساعات ، مفكراً أنّ هذا اليوم سيكون مختلفاً . . . لأنها اليوم ستأتي فعلاً .

لقد سمع كلمات ابنه وفهمها قلبه . ليته يستطيع التحدّث إلى مارك مباشرة كما يفعل الآن ! استطاعت إيفي أن ترى الدموع على خدّيه ، دموع لم يحاول

مسحها، ولعله لم يلاحظها حتى. دنت منه وأخذته بين ذراعيها، تماماً كما فعلت لتهدىء ابنه. شعرت على الفور بذراعيه حولها، تمسكان بها كما لو أنه يبحث عن ملجأ.

همس متابعاً: «لكنها لم تأتِ...».

- جاستين!

أمسكت به وهزّته قليلاً، فنظر إليها بيأس: «كنت واثقاً من أنها ستأتي، لكنها لم تفعل».

- أنت؟

طرحت هذا السؤال وهي تتساءل إن كانت قد سمعته جيداً! فقال بصوت مرتجف: «لقد وعدتني! كنت واثقاً من أنها لن تخلّ بوعدها... لكني لم أرها مجدداً».

عندئذ، فهمت أنّ جاستين لم يكن يشير إلى خسارة ابنه، بل يتحدّث عن خسارته الشخصية.

بدا كأن هوّة سحيقة فُتحت تحت قدميها، وخرج من أعماقها بؤس موجع تركها محطّمة. هذا البؤس أنشب مخالبه فيها، مفجراً يأساً لا نهاية له وألماً يصعب تحمّله. كان الرجل بين ذراعيها يرتجف من هذا الألم، فضمّته إليها أكثر تحاول قصارى جهدها كي تواسيه رغم عجزها عن فهم ما يجري من حولها. وخطر لها أنّ عليهما أن يتركا هذا المكان، فقد يسمع مارك صوتيهما ويخرج. دفعته بلطف نحو غرفتها فاستند إليها وهو يكاد يعجز عن المسير. أغلقت الباب خلفهما لكنها لم تضىء النور. جلسا معاً على طرف السرير إذ كانت يداه متشبثتين بها كبراثن الموت.

لقد أمسك بها بإحكام من قبل، لكن الوضع مختلف الآن. فبدلاً من الغطرسة، ظهرت حاجته ويأسه ما دفعها إلى ملاقاته في منتصف الطريق ومعانقته ومواساته. همست تماماً كما فعلت مع ابنه: «لا بأس أنا هنا. تمسّك بي».

أبقى عينيه عليها وهو لا يزال يرتعش كرجل عالق في كابوس لا يستطع

الفرار منه.

- جاستين، ما الأمر؟ لا علاقة لوالدة مارك بذلك، أليس كذلك؟

فقال بصوت أجش: «لا!».

- أخبرني.

- لا أستطيع... ثمة الكثير من الأمور... ما من فائدة الآن.

قالت: «ثمة فائدة إذا وجدت من يرغب فعلاً في مساعدتك. لكن، أنّى لي ذلك إذا كنت لا أفهم ما يجري؟».

- كيف يمكنك أن تفهمي، فيما أنا نفسي لا أفهم؟ أريد أن أسأل عن السبب... لطالما رغبت في ذلك... إنما لم أجد من أسأله.

لم تستطع أن تحتمل عذابه، فهمست: «ستكون الأمور على ما يرام، سأحرص على ذلك».

لم يكن لديها فكرة عما قصدته بكلامها أو عما يمكنها أن تفعله من أجله، إلاّ أنّ التفاصيل لا تهم. ما يهم الآن هو تخفيف آلامه بأيّ طريقة ممكنة. لذا، راحت تمرر يدها على شعره وظهره حتى شعرت به يسترخي بين ذراعيها. بقيا متعانقين طويلاً حتى شعرت بما يشبه السلام يحلّ عليه.

همست سائلة: «هل يمكنك أن تتحدث عن الموضوع الآن؟».

- لست واثقاً. لم أحاول قط من قبل.

- لعل هذه هي المشكلة. تحدّث إليّ يا جاستين، من أجلنا نحن الاثنين.

- لا أعلم من أين أبدأ.

- ابدأ بوالدتك.

- أيّ والدة؟

جوابه هذا أذهلها، فرفعت رأسها تتأمله. وبعد دقيقة بدأ يتكلم بتردد: «في السنوات السبع الأولى من حياتي كنت كأيّ طفل آخر. كان لديّ منزل ووالدان يحبانني أو يبدوان كأنهما يحبانني. وبعد حين، حملت المرأة التي ظننتها أمي، فتقدت بين ليلة وضحاها اهتمامها بي. وعرفت السبب بمحض الصدفة. سمعتها تتحدث إلى أختها وتقول: إنه لأمر رائع أن يرزق المرء بطفل من

صلبه! وهكذا عرفت أنها ليست أمي الحقيقية.

قالت إيفي بصوت خافت: «يا إلهي! هل أخبرتها بما سمعته؟».

- لا، احتفظت بالسر لأشهر، مدّعياً أنه غير صحيح. لكن قدرتي على الادعاء راحت تضعف، لا سيّما مع ولادة الطفل. شعرت بالغيرة منه، وبدأت أصاب بنوبات غضب، فاتصلا بالخدمات الاجتماعية قائلين إنني جامح وينبغي أن أنقل إلى مركز عناية. بعدئذ، لم أعد أستطيع أن أدّعي. تبنياني كخيار ثانٍ لأنهما ظنّا أنهما عاجزان عن الإنجاب. بعدئذٍ لم يعودا بحاجة إليّ.

حدّقت فيه وقد أخرستها الصدمة، أما هو فتابع يقول: «لا أتذكر الكثير عن ذاك اليوم. أذكر أنني صرخت وطلبت من والديّ عدم إبعادي عنهما. كما أني توسّلت إليهما ورجوتهما من دون فائدة. لم يعودا يرغبان فيّ».

رجته وهي تغطي عينيها كأنها تبعد بذلك شبح هذه القصة الرهيبة: «انتظر.. توقف... لا أحتمل هذا. لا بد أنهما كانا يكنّان لك بعض الحب؟».

- أنت لا تفهمين الحقيقة. كنت مجرد بديل. لو لم يرزقا بطفل من صلبهما لاكتفيا بي على ما أظن، لكني أصبحت حملاً ثقيلاً عليهما. إدراكي لهذه الحقيقة تطلّب مني سنوات طبعاً. جلّ ما عرفته حينذاك هو أنّ الذنب ذنبي لأني كنت شريراً ومؤذياً.

قالت بغضب: «كيف يمكن للمرء أن يكون قاسياً إلى هذا الحد، بحيث يلقي مثل هذا العبء على كاهل طفل؟ هذا مريع! أفترض أن هذا ما أرادا أن يعتقداه بحيث لا يشعران بالذنب حيال ما يفعلانه».

- نعم. أدركت هذا أيضاً في النهاية. لكنني صدّقت حينذاك ما قيل لي.

- إلى أين أخذاك؟

- إلى ما يُعرف باسم «البيت»، ما يعني مؤسسة اجتماعية. في البدء، اعتقدت أن أمي ستأتي لزيارتي، فاعتدت أن أقف عند النافذة لأراها حين تدخل. كنت واثقاً من أنها ستأتي، إلاّ أن الأسابيع مرّت من دون أن

تظهر. لم أستطع حينذاك أن أواجه الحقيقة، حتى راح أحد الصبية يهزأ مني قائلاً: «أنت تضيّع وقتك سدى، فأمك تخلّت عنك.»

«عندئذ، أدركت الحقيقة، لأنني لطالما عرفتها في قلبي. الطريقة الوحيدة التي وجدتها لأتغلب على ألمي هي التشاجر معه. كان أضخم مني، لكني تغلبت عليه لأنني كرهته، ليس بسبب ما قاله وحسب بل لأنّ أمه كانت ستأتي في اليوم التالي لاصطحابه إلى المنزل. لم يكن البيت مكاناً سيئاً، فالعاملون فيه يبذلون قصارى جهدهم. لم أجد في ذلك المكان أيّ عاطفة لأنّ عدد العاملين كبير جداً، لكني ما كنت لأتمكّن من التعامل مع ذلك على أيّ حال. فقد تعلّمت ألاّ أتقرّب من الناس، لذا لا أعلم ما كنت لأفعله لو حاول أحدهم التودد إليّ. كنت لأختار العنف على الأرجح».

هزّت رأسها في حركة إنكار غريزية. في الماضي، كانت تظنه رجلاً عنيفاً إلاّ أنّ رأيها فيه تغيّر الآن.

استأنف جاستين كلامه: «تركت البيت حين بلغت السادسة عشرة، وفي آخر يوم...».

توقّف عن الكلام فيما أصابته قشعريرة، فسألته بصوت ناعم: «ماذا حصل؟».

لم يجبها في البدء ثم قال: «اسمحي لي بدقيقة».

وقف على قدميه وسار نحو النافذة. حملقت في ظهره العريض، متسائلة كيف خطر لها أنّ حجمه وقوته مخيفان. كل ما استطاعت رؤيته الآن هو البؤس الذي يتآكله. وقفت بدورها ولحقت به إلى حيث يقف، ثم أدارته نحوها، واضطرت إلى كبح دموعها لِمَا رأته.

كان يرتجف. شيء ما في داخله كان يتآكله وظنّت للحظة أنه لن يتمكّن من التحدّث عنه. أخيراً قال: «عندما غادرت أخبروني الحقيقة كلها. عندئذ، علمت أن أمي التي أنجبتني تخلّت عني فور ولادتي».

حدّقت إيفي فيه، وهي تهز رأسها ببطء لفظاعة ما سمعته بعدئذٍ وجاءت ضحكته خشنة ومرّة.

- لن تصدّقي هذا: لقد تُركت على باب ملجأ كما كان يحصل في العهود الغابرة. إذا ما فعلت الأم ذلك فلا يمكن تعقّبها، بعد أن تكون قد تخلّصت من الطفل نهائياً. كل ما كانوا يعرفونه هو أنني جئت في ليلة ما من المجهول. يبدو أنّ طبيباً قدّر إنّ عمري بحوالي الأسبوع، فأجروا بحثاً عن الأطفال الذين ولدوا مؤخراً في تلك المنطقة، لكن أياً منهم لم يكن أنا.

- أتعني.. أن ولادتك لم تُسجّل حتى؟

- والدتي لم تفعل هذا، بل دار الأيتام.

همست: «هذا مريع! طوال هذا الوقت، وأنت لا تعلم من تكون فعلاً».

قال بسخرية مرّة: «لكنني أعرف من أنا. أنا ابن لم ترغب فيه والدتان. هل من شيء أوضح من هذا؟».

- لطالما تساءلت لما تبدو غاضباً جداً ومشككاً طيلة الوقت. والآن أتساءل كيف لم تفقد صوابك.

- لست واثقاً من أنني لم أفقده. مرّت فترة طويلة كنت خلالها مجنوناً، فلم أحسن التصرف سواء في «البيت» أو بعد أن غادرته. وقعت في المشاكل مع الشرطة، وقضيت بعض الوقت في السجن، ما جعلني أتصل مجدداً مع أبويّ بالتبني.

سألته وهي تتوق إلى بعض العزاء في هذه القصة الأليمة: «هل هبّا لمساعدتك؟».

- لا! أرسلا إليّ محامياً ليقول إنه سيدافع عني شرط أن أتوقف عن استخدام شهرتهما. كانت شهرتهما، ستراسن، وبما أنني ما زلت أحملها، راح الناس يربطون بين الفتى الجامح وبينهما.

سألت: «أهكذا أصبحت جاستين داين؟».

كانت تود لو تقول كلاماً أكثر عنفاً، لكنها بذلت جهداً بالغاً كي تضبط نفسها.

- لا، أصبحت جون دافيس. أصرّ والدي «المؤقتان» على أن يكون الأمر رسمياً كي لا يرتبط اسمهما باسمي مجدداً. بعدئذ، دفعا مبلغاً ضخماً للدفاع عني

وتمت تبرئة جون دافيس. لم يحضرا إلى المحكمة أبداً.

- إذاً، ما الذي حصل لجون دافيس؟

- لم يعش أكثر من ذالك اليوم. غيّرت اسمي ليصبح ليو هولمان. لم أقم بهذا رسمياً بل اكتفيت بالرحيل، وعرّفت عن نفسي باسم ليو أينما حللت.

- ألا تحتاج بعض الوثائق لتستحصل على جوازات سفر، وتفتح حسابات مصرفية على سبيل المثال؟

- نعم، لو أنني احتجت إلى مثل هذه الأمور لواجهت مشاكل، لكنني لم أكن أعيش في عالم من جوازات السفر والحسابات المصرفية. كنت أقوم بأعمال يدوية لقاء مبالغ من المال، ووقعت في المشاكل مجدداً ودخلت السجن... لم أُحكم يوماً لفترات طويلة، بل لبضعة أشهر وحسب. وكلما خرجت من السجن، رحت أبدّل اسمي مجدداً، وصلت إلى مرحلة لم أعد أحسب فيها المرات التي كنت أغيّر اسمي فيها. لم يعد الأمر يهمني. ولمَ أهتم؟ فلم يعد لديّ هوية حقيقية. في آخر مرة دخلت فيها السجن التقيتُ رجلاً أعادني إلى الطريق القويم.. كان اسمه بيل، وكان يتردد على السجن كزائر، لكنه قضى عقوبة في الماضي ما جعله يعرف عمّا يتكلم. رأى فتى يمكن إعادته إلى الصراط المستقيم، فقرر أن يقوم بذلك بنفسه.

«عندما خرجت وجدته بانتظاري. منحني غرفة في منزله كي يتمكّن من مراقبتي بعين صقر، ليرى إن كنت ملتزماً بالطريق الصحيح. جعلني أتابع دراستي في صفوف مسائية. تعلّمت الكثير ووجدت أنني أستمتع بأن يكون لديّ طموحات، وتدريجياً تحوّلت إلى مواطن محترم من النوع الذي يحتاج إلى وثائق هوية.

«وهكذا، غيّرت اسمي مرة أخرى. حينذاك، كنت أدعى أندرو لستر فتحوّلت إلى جاستين داين. قمت بذلك بشكل رسمي وبدأت العمل في شركة بيل».

- كيف اخترت هذا الاسم؟

- كان لبيل جواد يدعى داين. أما جاستين فنسيت كيف اخترته. في

النهاية، أقرضني بعض المال لأبدأ عملاً خاصاً بي. بعد ثلاث سنوات أعدت له ماله، وبعد ثماني سنوات اشتريت عمله. لا تسيئي تفسير تصرفي هذا، فقد أسعده ما فعلت. دفعت له مبلغاً كبيراً، كافياً كي يتقاعد. ما كنت لأؤذيه، فأنا أدين له بالكثير، وقد دفعت هذا الدين. بعدئذ، لم أعد أهتم بسوى جمع المال، فهذا جلّ ما أعرفه. بدا أنني عاجز عن إقامة علاقات وإنجاحها.

- ماذا عن زوجتك؟ لا بد أنك أحببتها؟

- أحببتها كثيراً، حتى أنني أقنعت نفسي بأنها تحبني، لكننا تزوجنا لأنها حملت، وكنت أريد طفلاً بأي ثمن، لكن علاقتنا لم تنجح. في النهاية، لم تعد تستطيع أن تتحملني، هذا ما قالته. أفضل ما نتج عن هذه العلاقة هو مارك. ظننت أنني سأنجح معه، إلا أنني لم أفعل. لا أعرف كيف. فأنا أدفعه بعيداً عني كما يبدو أنني أفعل مع الجميع.

قالت بصوت متوسل: «لكن ما حصل مع والدتيك.. كل منهما.. لم يكن ذنبك، هذا مستحيل».

- ربما لا، لكنه وضعني على سكة لا أعرف كيف أتخلص منها.

وضحك ضحكة خافتة ومرّة قبل أن يردف: «ستجدين صعوبة في تصديق ما سأقوله، لكنني أشعر بالارتياح تقريباً حين يطلب مني الناس أن أغرب عنهم، فهذا على الأقل ما أعرفه جيداً».

وصمت. وضعت إيفي ذراعيها حوله واستندت إلى جسده، فيما وقفا عند النافذة. لم تتكلم هي أيضاً، فأمام مثل هذه القصة المريعة يسكت الكلام.

٨ - لقاء حاسم

بعد انقضاء تلك الليلة، لم يثيرا هذا الموضوع مجدداً، فقد تكلم جاستين أكثر مما يستطيع أن يحتمل، فيما حذّرتها غريزتها من العبث بالرماد لئلا تستعر النار. فكرت أن عليها أن تبدأ بالتعرّف على هذا الرجل من جديد. كل ما ظنته به من قبل تغيّر الآن بشكل جذري، وبدلاً من الرجل المسيطر الذي يتلاعب بها لأهداف خفية، ظهر أمامها طفل محروم، بائس يتساءل عما فعله كي لا يعرف الحب. سيبقى هذا الطفل جزء منه طيلة حياته، ما يجعله عرضة للاهمال وللنبذ اللذين لن يتمكّن من التغلّب عليهما إلاّ عندما يبادر بالهجوم. وابتسمت لفكرة أنه سيتزعج لرؤيتها له من هذه الزاوية، لكنها ستحتفظ برأيها لنفسها.

لم يخبرا مارك بالسبب الذي جعل الجو بينهما أكثر سعادة، أما هو فقد خفّ توتره وراح يبتسم أكثر، لكنه، وعلى غرار أبيه، يعرف كيف يبقي خططه طي الكتمان.

توطدت الصداقة بين إيفي وجاستين يوماً بعد يوم. وكان كل منهما قد جد في الآخر سنداً له وحليفاً. وراحا يتبادلان الأحاديث حيناً، ويمرحان أحياناً وربما يتعانقان.

في إحدى الليالي، وفيما كانا يجلسان متلاصقين تحت ضوء القمر، قال جاستين: «إذاً، ماذا كان كل هذا عن أندرو؟».

ضحكت إيفي وردّت: «لا تذكّرني كم كنت غبية. أظن أنني أردت أن أصدّق أني مغرمة به، والجهد الذي بذلته لإقناع نفسي كان يقتلني».

- لكن، لماذا؟

- أنت قلت لي ذات مرة إنّ ما من رجل عرض عليّ الالتزام مدى الحياة...

- ذات مرة.. قلت الكثير من الأمور الغبية. ما كان ينبغي أن تصغي إليّ.

- أحاول ألاّ أفعل، لكن من الصعب أن تصمت عندما تنطلق. لقد أزعجتني حينها، إذ جعلتني أشعر وكأنني عانس أتمسك بآخر فرصة لي. كنت لأرفسك لو تمكّنت من ذلك.

ابتسم وعانقها: «إذاً، ما هي القصة الحقيقية؟».

- لطالما كنت الشخص الذي يتنصّل من الالتزام؛ فالأمر يبدو مملاً للغاية. أنا أحب حياتي، والحرية والتنوّع...

- والدراجة النارية.

- نعم. لم أصادف يوماً رجلاً جعلني أرغب في تغيير حياتي. ظننت أنني لو انتظرت بما يكفي فسأقابل الرجل المناسب. وفجأة، وجدت نفسي أكاد أبلغ الثلاثين، وكان أندرو رجلاً لطيفاً بحيث... حسناً...!

- فكرت أن لا بأس به.

- تجعل الأمر يبدو فظيعاً، لكن، نعم. أفترض أنّ هذا صحيح. كنت قد بدأت أشعر بالوحدة. فقررت أن أختار أندرو. لكني بقيت أجبر نفسي على الالتزام، وهو أدرك بالطبع أن ثمة خطأ ما.

فقال جاستين بسخرية المقاتل الذي هزم غريمه: «وعندما رحت تتشاجرين معه على الدوام وصلته الرسالة وفهمها؟».

- حسناً! يسرّني أنه فعل، وأنه وجد شخصاً يناسبه أكثر مني.

جلسا في هدوء ورضا لبعض الوقت فيما هي تتساءل كيف يمكنها أن تفاتحه بالموضوع الذي يشغل بالها. أخيراً، همست: «هل أخبرت مارك أنك اشتريت هذا المنزل؟».

- لا، لم أكن واثقاً مما عليّ أن أقوله، بعد أن غضبت مني.

- غضبت لأنني أسأت فهمك، ظننت أنك... لا يهم. كنت مخطئة. اتصل بي المحامي هذا الصباح ليقول إنه سدد كافة ديون العم جو، وأرسل لي شيكاً بالمبلغ المتبقي.

- أفترض أنك ستعيدين لي ما تبقّى؟

جاءت نبرته خفيفة، لكنها استطاعت الآن أن تسمع الفزع المخفي فيها. ردّت بمرح وهي تتمسك به: «لا! سأضعه في حسابي في المصرف، وأنفقه!».

- يسرّني هذا.

- سأستخدمه فعلياً لإجراء بعض التصليحات في المنزل... هذا... إذا ما كان لا يزال لي.

أخذها بين ذراعيه قبل أن تنهي كلامها، فأحست بارتياحه الشديد لأنها قبلت أخيراً هديته بعد أن رفضتها في السابق.

ليتها تصدّق أنّ بوحه بأسراره أعاد الأمور إلى نصابها، أو على الأقل، منحها المفتاح الضروري كي تساعده. لقد وجد معها نوعاً من السعادة، إلاّ أنّ هذا وحده لا يستطيع أن يطرد الشياطين التي تلاحقه وعدم الشعور بالأمان الذي يتآكله. كان لا يزال يغضب من أمور تافهة، إلاّ أن فورة غضبه سرعان ما تهدأ فيعتذر بطريقة تفضح خوفه من أن ترحل عنه. كانت مستعدة دوماً لمسامحته، لكن قلقها عليه بقي يتعاظم. ولعل أشد الأوقات صعوبة هي تلك التي يسيطر فيها اضطرابه الداخلي، ويبتعد ليعاني وحده ثم يعود مع ابتسامة عريضة وشيء من التوتر.

ذات مرة، وبعد أن خلد مارك إلى النوم، أشعلا النار في المدفأة، وجلسا على الأريكة القديمة أمامها. سألته: «جاستين، إلى متى يمكنك أن تستمر على هذه الحال؟».

قال: «أستطيع. ماذا يمكنني أن أفعل غير ذلك؟».

- عندما رأيتك لأوّل مرة، خطر لي كم تبدو غاضباً، وعندما عرفتك بشكل أفضل أدركت أنك غاضب طيلة الوقت. مهما حصل، يبقى غضبك كامناً تحت السطح، ينتظر الفرصة ليتفجّر، ولا يتركك بسلام أبداً.

- أنا آسف لأنني فقدت أعصابي اليوم...

- لا بأس! اعتذرت حينها، واشتريت لمارك لعبة الكمبيوتر تلك لتعوّض عما فعلته.

فقال جاستين باستسلام: «نعم.. ووضعها على جهازي بحيث لم أستطع

أن أستعمله لساعات. كوني عادلة واعترفي بأني لم أفقد أعصابي».

- لا، كنت صبوراً للغاية، حتى إنك تركته يعلّمك اللعبة ويهزمك.

كشّر جاستين وقال: «لم أتركه يهزمني، بل هزمني، وسرّه أن يتبجّح على حسابي. إنه فتى عظيم يا إيفي! أظن...».

قاطعته على الفور: «لا! لا تغيّر الموضوع. نحن نتحدّث عنك أنت. أنت لست سعيداً...».

فقال وهو يشدد من احتضانها: «بل أنا سعيد. أحتاج القليل من بلسم الدكتورة إيفي السحري ليبقى مزاجي حلواً طيلة الوقت».

- أبداً! لا أظن أنني سأتحملك وأنت لطيف ورقيق طيلة الوقت. لن أعرفك حينها.

قاطعت ضحكته كلامها، لكنها تابعت تقول: «كما أنّ البلسم السحري لا يشفي إلاّ الجروح السطحية، وأنت تحتاج إلى ما يشفيك من الداخل».

- إيفي، أنا لست مريضاً. إنه وضع قائم. إنها مشكلة حياتي، ولا يمكن حلها.

- ربما يمكن حلها.

- اسمعي يا إيفي. أعلم أنّ نواياك حسنة، لكن عليك أن تلعبي بالأوراق التي بين يديك، فإما أن تجيدي اللعب وإما أن تخطئي، لكنك لا تستطيعين تغييرها.

- يمكنك أن تجري تحريات. وعندئذ، قد تكتشف ما لم تتوقّعه.

- ماذا تعنين بكلامك هذا؟

- أعني أنّ عليك أن تبحث عن أمك الحقيقية، من هي ولِمَ لم تتمكّن من الاحتفاظ بك؟

حملق فيها: «هل أنت مجنونة؟».

- لا، لكنك قد تصبح كذلك إذا حاولت أن تحمل هذا العبء لفترة أطول. أظن أنك بدأت تنهار تحته.

خاطرت بكلامها هذا وانتظرت ردّ فعله. رمقها بنظرة عاصفة لكنه لم ينكر

ما قالته.

- ألم تحاول قط أن تعثر عليها؟

زمجر: «لِمَ أفعل هذا؟ كي أتمكن من أن أسألها: لِمَ رميتني خارجاً مع النفايات؟ هيّا أخبريني، فهذا سيصلح الأمور؟».

- لكن، قد يكون لديها ما تخبرك به ويجعلك تفهمها بشكل أفضل. ربما لم يكن أمامها خيار آخر. لعلها كانت امرأة شابة غير متزوجة، وهذا أمر صعب في تلك الأيام. حاول على الأقل. قد يشكّل هذا فرقاً أكبر مما تتصوّر.

- كيف يمكن هذا؟ لقد تخلّت عني، ولا يمكنني نسيان هذا.

- لعلها لم تشأ أن تتخلى عنك. لعلها تعرّضت لضغوط لا تُحتمل.

- أودّ أن أرى أحدهم يحاول أن يضغط عليّ لأتخلى عن ابني.

- لا تكن سخيفاً! هذا أغبى كلام سمعت أحدهم ينطق به. إننا نتحدث عن فتاة ضعيفة فيما أنت رجل راشد وقادر. لا يمكن لأحد أن يضغط عليك أو يزعجك.

- لا بأس بك أنت.

- أنا أشير إلى الوقائع وحسب.

فقال وهو يتأملها بحذر: «لا أرى أيّ فارق الآن».

- إن كنت قادراً على مواجهة الناس، فهذا لا يعني أنّ الآخرين قادرون على ذلك. هذه الملاحظة غبية بصراحة يا جاستين.

فقال بحدّة: «حسناً! أعترف بذلك. كنت أحاول أن أجعلك تتركين هذا الموضوع عند هذا الحد. أتظنين أنني أريد أن أترك الغرباء يتدخلون في حياتي الخاصة ويتجسسون عليها؟ أيمكنك أن تتخيلي كم كان صعباً عليّ حتى أن أخبرك؟ افترضي أنها لم تكن فتاة ضعيفة. افترضي أنها مجرد امرأة لا ترغب في أن تزعج نفسها».

- حسناً، هذا ممكن. لكنها ما كانت حينذاك لتتخلى عن طفلها سراً، ولاتصلت بالخدمات الاجتماعية. إلاّ أننا لا نعرف الحقيقة، ولهذا من الضروري أن نكتشفها.

- هل نسيت أنها لم تسجّل ولادتي أيّ أنّ لا وجود لي نظرياً. لا يمكن لتلك الوكالات التي تعمل على جمع الأولاد مع أمهاتهم أن تساعد رجلاً لا يرد اسم أمه على شهادة ميلاده.

وافقته الرأي: «سيكون الأمر أكثر صعوبة، إنما ليس مستحيلاً. لديّ صديق أودّ أن أوكل إليه هذه المهمة. إنه تحر خاص وهو لامع».

بقي جاستين صامتاً، وكادت إيفي تحس بعنف مشاعره تشدّه في الاتجاه المعاكس. حثّته قائلة: «يمكنني أن أهتم بالمسألة برمتها. أعطني كافة التفاصيل وسأتحدث إليه. لست مضطراً حتى للقائه إذا لم تشأ ذلك».

فقال بهدوء: «حسناً، سأترك المسألة كلها لك».

احتضنته بشدة، راجية أن تكون قد أحسنت التصرف. إذا ما جاءت نتيجة تصرفها سلبية فقد تزيد مشاكله سوءاً، إلاّ أنها كانت واثقة من أنه لن يتمكّن من الاستمرار طويلاً على هذا النحو.

أخيراً، حان الوقت لترك المنزل الواقع على شاطىء البحر والعودة إلى لندن.

وتدبّر جاستين أمر شاحنتها الصغيرة كي يتمكنوا من السفر معاً. وفي طريق العودة قال: «سنصل إلى لندن في وقت متأخر جداً، فلِمَ لا نمضي معنا هذه الليلة أو حتى بضعة أيام؟».

وافقت إيفي كما لو أنهما لم يتفقا على ذلك في وقت سابق. وابتسم مارك، فهو طفل يرى ويفهم أكثر بكثير مما يقال له.

بعد بضعة أيام، سافر جاستين إلى نيويورك بعد أن أطلع إيفي على كافة الملفات المتعلقة بولادته والموجودة في مكتبه. كانت المعلومات محدودة جداً، لكنها بداية.

بعد رحيل جاستين، اتصلت بدايفيد هالام، وهو تحرٍ خاص وصديق لها. تذمر هذا الأخير. بعد أن رأى ما تملكه من معلومات: «لم تعطيني الكثير. لكن لا بأس، سنشكّل هذه القضية تحدياً».

اتصل ديفيد بها عشية عودة جاستين قائلاً: «لقد حرّكت الأمور فعلاً».

- أتعني أنك وجدت شيئاً ما؟

أطلعها على ما اكتشفه. بالكاد استطاعت كبت حماسها، وفكرت أن عليها أن تتحلّ بالصبر. توجّهت هي ومارك إلى المطار لملاقاة جاستين وتنحّت جانباً لترك الأب والابن معاً. سيحين دورها لاحقاً.

في تلك الأمسية قالت له: «لا أعرف مدى أهمية ما اكتشفه دايفيد، لكنه يريدك أن تقابل أحد الأشخاص».

قال بتوتر قائلاً: «ليس...؟».

- لا، ليس هي، بل رجل. اسمه بريمو رينوتشي. وزوجة أبيه الإنجليزية فقدت طفلها منذ ولادته. إنه يبحث عنه منذ سنوات، وقد اتصل بعشرات المنظمات ووكالات التحريات، طالباً منها إعلامه إذا ما اتصل بها شخص يحمل المواصفات الصحيحة. ثمة إمكانية أن تكون أنت الرجل الذي يبحث عنه.

شحب وجهه: «يا إلهي!».

- فكّر في الأمر يا جاستين. إذا تبيّن أنك الرجل المطلوب، فهذا يعني أنها كانت تبحث عنك.

قال في همس أجش: «لا! لا تشجعيني وتثيري فيّ الأمل. إيفي!».

- نعم يا عزيزي. نعم، نعم!

لعل هذا هو الجواب الذي سيجعله كاملاً أخيراً، وإذا لم يتابعا الموضوع فسيعذبهما الشك إلى الأبد. إلاّ أنها كانت تعلم أيضاً أن جاستين يقف على حافة هاوية خطرة، وأنّ خيبة الأمل ستدمّره. وإذا حصل هذا، فستلوم نفسها إلى الأبد.

قال: «ماذا تعرفين أيضاً عن ذاك الرجل؟».

- سيأتي من نابولي لمقابلتك، وقد حددت الموعد لما بعد الغد.

- لا يمكنني أن أنجح من دونك. أحياناً، يخطر لي أنني عاجز عن القيام بأيّ عمل من دونك، كما لو أنك ما يربطني بالحياة. وإذا ما انقطع هذا الرابط فسوف...

صمت وكأنه يبحث عن كلمات تعبّر عما في داخله: «... أغرق في هوّة سحيقة، ولا أخرج منها أبداً».

لو نطق رجل آخر بهذه الكلمات لاعتبرت أنه يعبّر لها عن حبه، لكن هذا الرجل مختلف تماماً عن غيره. أدرك أنها فهمته فسخر من نفسه قائلاً: «لم أحسن التعبير، أليس كذلك؟».

فقالت وهي تبتسم: «لقد وصلتني الرسالة، فلا تقلق».

بدا يائساً وهو يقول: «يسرّني هذا، فثمة أمور... لا يمكنني أن أنطق بتلك الجملة المؤلفة من كلمتين».

وأدركت أنه قد لا يعبر لها يوماً عن حبّه. لكنها عرفت رجالاً يمكنهم أن يتحدثوا عن الحب بسهولة ولم ترغب في أحدهم. ما تريده هو هذا الرجل الأخرق بحاجته المعذّبة والمؤلمة.

سألها: «أتذكرين الليلة التي بحثنا فيها عن مارك، ووجدناه في المقبرة، فرافقتنا إلى المنزل، وتناولت العشاء معنا؟ عندما جاءت الكلاب وأضحكك نشاطها وحماستها».

- نعم، أذكر.

- لم أسمع يوماً شخصاً يضحك هكذا... يا له من صوت... غني ودافئ... وكأنك وجدت سرّ الحياة. بدا كأن... كأن عليّ أن أتبعك...

وكشّر ثم أردف: «... سواء أردتني أم لم تفعلي».

قالت بابتسامة عريضة: «صفقة استيلاء».

- هل تسخرين مني؟

لم يطرح سؤاله بعدائية بل بشيء من الخنوع، كشخص يحاول أن يتعلّم.

ردّت وهي تلامس وجهه: «ربما قليلاً».

- أنت غير عادلة. أعلم أن النساء يختلفن عن الأسهم والحصص...

فمازحته قائلة: «إذا استطعت أن تعرف وجه الاختلاف».

أمسك بيدها ورفعها إلى شفتيه، ثم تركها ترتاح على خده، وقال: «اسخري مني إذا شئت طالما أنك لا تتركيني».

تم تحديد اللقاء على أرض محايدة، إذ استأجر دايفيد غرفة في أحد فنادق لندن حيث التقى الأربعة لتناول الغداء. كانت إيفي تحمل معها الملف الذي يضم كافة الأوراق والوثائق التي يملكونها.

تبيّن أنّ بريمو رينوتشي رجل طويل القامة، ذو شعر بني خشن بعض الشيء، وفي أوائل الثلاثينيات من عمره. وعلى الرغم من اسمه، كان يتكلم الإنكليزية بطلاقة ومن دون أيّ لكنة.

كانت إيفي قد حضّرت نفسها لكافة الاحتمالات، إلاّ أن الحقيقة تجلّت على الفور. فما إن رأى بريمو جاستين، حتى جمد في مكانه وأخذ نفساً عميقاً. عندئذ، أدركت الجواب. لم تعرف ما إذا كان جاستين قد رأى وفهم، فتصرفاته بدت متشنجة وغريبة، كما أنه قطّب أكثر مما ابتسم. أما دايفيد فاستأذن ليغادر ما إن انتهى التعارف. همس لإيفي: «اتصلي بي لاحقاً».

بعد رحيله، راح الرجلان ينظران إلى بعضهما البعض بحذر. وأخيراً، قال بريمو: «أنت تتساءل ما الذي يربطني بك. دعني أخبرك القليل عن نفسي. ولدت في إنكلترا وعشت فيها في السنوات الأولى من عمري. كان أبي يدعى جاك كايمان وهو إنكليزي. أما أمي فإيطالية وشهرتها رينوتشي. توفيت أمي حين كنت طفلاً فتزوّج والدي مجدداً من شابة إنكليزية تدعى هوب مارتين. إنها امرأة رائعة، وهي أم أكثر منها زوجة أب، إلاّ أنّ زواجهما لم يدم لسوء الحظ. عندما تطلقا، أصر والدي على أن أبقى معه. لكنه توفي لاحقاً، فسافرت إلى إيطاليا لأعيش مع عائلة أمي وحملت شهرتها.

«لكن هوب، زوجة أبي، علمت أنني أعيش هناك فجاءت لرؤيتي. رحّبت بها أسرتي ووقع في غرامها خالي طوني. فرحت كثيراً حين تزوّجا لاسيّما وأنني أصبحت قادراً على العيش معهما. شعرت وكأني استعدت أمي.

«وبعد سنوات عدة، وبعد أن كبرت، علمت أنها رُزقت بطفل قبل زواجها من أبي. كانت حينذاك في الخامسة عشرة من عمرها وأراد والداها أن يمنحا الطفل للتبني وقد غضبا منها جداً حين رفضت ذلك. بعدئذ، لم ترَ طفلها أبداً إذ أخبراها أنه ولد ميتاً، وهذا كذب. كانت قد وضعت طفلها في المنزل والقابلة

التي ساعدتها هي عمّتها التي حملت الطفل إلى مدينة أخرى على بعد أميال من مكان إقامتها. ولم تكن هوب على علم بهذا كله».

لم ينطق جاستين بأيّ كلمة بل راح يحدّق في بريمو بقوة. وحدها إيفي عبّرت عن فظاعة ما سمعته لتوها، فقال بريمو وهو ينظر إليها بحرارة: «نعم، هذا فظيع. حزنت هوب على طفلها «الميت»، لكنها حزنت أكثر حين علمت أنه حيّ ويعيش بعيداً عنها، ظاناً ربما أنها تخلّت عنه».

ضحك جاستين ضحكة صغيرة معذّبة، لكنه لم يتكلم. سألته إيفي: «كيف عرفت الحقيقة؟».

- توفيت العمة، لكن قبل رحيلها عن هذا العالم، أرسلت بطلب هوب، وحاولت أن تخبرها ما حصل، إلاّ أنها لم تستطع أن تتكلم بشكل مترابط لدنو أجلها. فهمت هوب أنّ طفلها لم يمت، وأنه سُرق منها. لم تستطع أن تعرف حتى اسم المدينة، لأن العمة قصدت مكاناً ليست معروفة فيه. عدا ذلك، لم يكن لديها سوى تاريخ الولادة هذا.

ودفع بقصاصة ورق عبر الطاولة كُتب عليها تاريخ يعود لما قبل أسبوعين من التاريخ المسجّل على وثيقة ولادة جاستين الرسمية.

أردف بريمو: «بدأت بالبحث عنه منذ خمس عشرة سنة. وتطلّب العثور على المكان الذي تُرك فيه طفل فور ولادته سنوات. وأخيراً، تمكّن التحري الذي استخدمته من تقليص الاحتمالات إلى احتمال واحد. وظننت أن البحث انتهى لأن الفتى تبناه شخصان يحملان اسم ستراسن».

ساد الصمت المطبق في الغرفة للحظة. لم يتكلم جاستين، لكن قبضته على يد إيفي اشتدت حتى أصبحت مؤلمة، فيما تابع بريمو: «عاش معهما لسنوات باسم بيتر ستراسن، لكنه حمل هوية جديدة منذ عشرين سنة. عندئذ، فقدت أثره. اسمه الجديد أصبح فرانك دايفس، لكن أحداً لم يسمع بفرانك دايفس هذا لاحقاً».

راحت إيفي تفكّر في حزن، بأنّ أحداً لم يسمع به لأنه بدّل اسمه مرة واثنتين وثلاث. وفي كلّ مرة، كان أثره يضيع.

استأنف بريمو الحديث: «بدا كأنه تبخّر. الأمل الوحيد الذي تبقّى لي هو أن يبحث هو أيضاً عن أمه فيصلني الخبر، ولهذا السبب أنا هنا. أظنني أعرف الجواب مسبقاً، لكن هلاّ قلت لي إن كنت قد حملت اسم بيتر ستراسن يوماً؟».

أومأ جاستين برأسه ببطء ثم دفع بملف الأوراق نحو بريمو الذي درسها سريعاً وهزّ رأسه.

قال: «أنا راضٍ».

فسأله جاستين بصوت أجش: «أبهذه السهولة؟ ما الذي تثبته بضع أوراق؟».

- قلت لك إنني عرفت الجواب من قبل. عرفته ما إن وقعت عيناي عليك، فأنت تشبه أمك إلى حدّ ملفت. ثمة اختبارات يمكن أن تثبت النسب بشكل حاسم، لكنني لا أشك لحظة في أنك ابن هوب رينوتشي البكر.

٩ - حقيقة تتجاوز الخيال

تقلع الطائرة المتوجهة من لندن إلى نابولي في وقت مبكر، لذا أمضى الثلاثة ليلتهم في فندق المطار. قال بريمو حين جلسوا لتناول العشاء: «العم طوني يعرف لما أنا هنا، لكنني لم أطلع أمي على سبب سفري، خوفاً من أن أنعش الأمل في نفسها. إلاّ أنني اتصلت به وأخبرته بكل ما جرى وسيحضّرها نفسياً، لقد حلمت بهذا طويلاً، بحيث أن الحقيقة ستشكّل صدمة بالنسبة إليها».

سألته إيفي: «هل ستكون العائلة كلها حاضرة؟».

توجّه بالكلام إلى جاستين: «نعم، لكن الباقين سيتنحّون جانباً لبعض الوقت. أنت وهي تحتاجان إلى رؤية بعضكما على انفراد. بعدئذ، سنجتمع كلنا».

عادت إيفي تسأل: «أصحيح أن لهوب خمسة أبناء؟».

- هذا صحيح، رغم أنهم لم يولدوا كلهم من رحمها. هي وأبي تبنيا لوك. بعدئذ، رزقت بفرانشيسكو. لقد أغرمت بوالده فرانكو فيما هي لا تزال متزوجة من جاك كايمن، وهذا هو السبب الحقيقي وراء طلاقها من أبي. كارلو وروغيرو هما ابناها من طوني.

ابتسم لجاستين ابتسامة مشجّعة قبل أن يضيف: «إذن، لديك خمسة أخوة بشكل أو بآخر».

بدا أنه لم يلاحظ أن ابتسامة جاستين مصطنعة، وأنه لم يتكلم كثيراً. تابع حديثه: «لا بدّ أنّ أمي سترغب في لقاء ابنك مارك، حفيدها. سيخيب أملها لأنه لم يرافقك، لكنك أحسنت بتركه في الوطن هذه المرّة».

قال جاستين بهدوء: «أودّ استطلاع الوضع أولاً».

التفت بريمو إلى إيفي يخاطبها بالإيطالية: «يسرّني يا سيدتي أن تتكلمي لغتنا».

فردّت باللغة نفسها: «أنا أتكلم الإيطالية فقط، وليس لغة أهل نابولي العامية. لكنني أعرف بضع كلمات وأود أن أتعلم المزيد منها».

- يسرّني أن أعلّمك.

وعندما رأى جاستين يقطّب، أضاف بسرعة بالإنكليزية: «سامحني. إنا أتصرّف بفظاظة باستخدامي لغة لا تفهمها، لكن وجود سيدة تتكلم الإيطالية بهذه الطلاقة أمر ممتع. ستساعدك فعلاً».

وصمت لحظة قبل أن يردف: «أظن أنني سأخلد إلى النوم باكراً».

بعدئذ، هبّ واقفاً وطبع قبلة على يد إيفي قائلاً بالإيطالية: «تصبحين على خير يا زوجة أخي».

وغادر.

التفت جاستين إليها، وبعد لحظة قال بحدة: «ألن تخبريني ما قاله؟».

فقالت على عجل: «تمنّى لي أمسية سعيدة».

- لا! قال أكثر من هذا. لمَ تخفين بقية كلامه؟

- لأنه محرج بعض الشيء. دعاني زوجة أخيه. انسَ ذلك... سأخلد إلى النوم.

رافقها إلى الأعلى وتمنى لها نوماً هانئاً عند باب غرفتها. إلاّ أنّه ما لبث أن عاد وقرع بابها.

سألته وهي تفسح له المجال ليدخل: «هل أنت بخير؟ كنت هادئاً جداً طيلة الأمسية».

لم يجبها في بادىء الأمر، بل دخل إلى الغرفة قبل أن يقول بشكل مفاجىء وحاد: «إيفي، لننسَ هذا كله ونعود إلى المنزل».

- لا يمكنك أن تكون جاداً، ليس بعد أن قطعنا هذا الشوط. لا يمكنك أن تبتعد الآن، حين أصبحنا على وشك أن نكتشف كل شيء.

- أحقاً؟ ما هو هذا الكل شيء؟ هل يمكنك أن تخبريني؟ في الماضي كنت

لأوافقك الرأي، لكنني التقيتك الآن، ولديّ كل شيء آخر. ما الذي يمكن أن يربطني بها بعد هذه السنوات كلها؟

- لكنك لا تستطيع أن تفعل هذا بها. إنها تنتظر وصولك الآن؛ سينفطر قلبها إن لم تفعل، وستندم في المستقبل على عدم لقائها واكتشاف ما تحتاج إلى معرفته. جاستين، إنك تبحث عن أعذار... لماذا؟

ابتسم لها ابتسامة حزينة: «أنت تقرئين أفكاري. أنا أبحث عن أعذار لأني خائف. لطالما اعتبرت نفسي قوياً.. عليك أن تظهري هذا للناس لأنهم إذا شعروا بضعفك سيقضون عليك، إلاّ أن الحقيقة هي أنني جبان وقد اكتشفت ذلك لتوي».

- لا تقسو على نفسك فأنت لست جباناً.

- أنت تعرفين نقاط ضعفي أكثر من أيّ شخص آخر، وأنت الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أعترف له بذلك، الشخص الوحيد الذي أثق به إلى هذا الحد. أنت كل ما أحتاجه. أريد أن أمضي ما تبقّى من عمري معك. ما من شيء آخر يهمني.

ابتسمت ولامست وجهه بحنان: «عزيزي! أنا أحبك ويسعدني أن تقول هذا، لكن... ألا ترى أنه لا يمكننا أن نفكر في هذا الآن؟ ما سيحصل في الغد سيطغى على سواه لبعض الوقت. أنا هنا إذا ما أردتني، لكننا لا نستطيع سوى المضي في العودة إلى الوراء».

هزّ رأسه: «ما من شيء يمكن أن يطغى عليك. سأمضي قدماً إن وضعت يدك في يدي. ساعديني يا إيفي. فمعك أستطيع مواجهة ما ينتظرني. لكن من دونك...».

واكفهر وجهه.

فقالت وهي تأخذه بين ذراعيها: «لست مضطراً لأن تكون من دوني».

لم تشعر يوماً برغبتها في حمايته كما شعرت في هذه اللحظة، إلاّ أنها لم تستطع أن تتجاهل ظلاً خفيفاً في إحدى زوايا ذهنها. قال إنه يريد أن يمضي ما تبقى من عمره معها. لم يكن هذا طلب زواج بالمعنى الحرفي للكلمة، لكنها علمت أن

بإمكانها أن تحوّله إلى ذلك لو شاءت.

لمَ لم تفعل هذا؟ أهو حذرها القديم الذي منعها من الزواج في الماضي؟ أم أنّ ثمة شيئاً خطيراً في هذا الرجل، نبّهها إلى وجوب توخّي الحذر، رغم شعورها بأنّ الروابط التي تربطها به تشتد حول قلبها؟

مضت الرحلة إلى نابولي بهدوء. وفي الساعات الأولى من بعد الظهر، كانوا في السيارة التي أرسلت لتنقلهم إلى ڤيلا رينوتشي.

شعرت إيفي بالحماسة لأنها عادت إلى إيطاليا، وإلى منطقة لطالما تاقت لاستكشافها، بحيث كادت تنسى كل ما عدا ذلك. كانت الشمس تصب أشعتها عليهم فيما هم يسلكون الطريق الساحلية ثم يتوجهون إلى الڤيلا تاركين خليج نابولي خلفهم.

بدت الڤيلا من الأسفل أشبه بقصر صغير مبني من حجر بلون العسل. كان المنزل مؤلفاً من أجنحة عدة، وتحيط به شرفات، فيما تدعم السقف أقواس عالية.

نظرت إيفي من النافذة فخيّل إليها أنها رأت امرأة طويلة القامة نحيلة تقف على الشرفة، تراقب السيارة وهي تشق طريقها صعوداً نحو الڤيلا. إلاّ أن الشمس الساطعة جعلتها ترمش بعينيها، وعندما عادت ونظرت من جديد لم تر لها أيّ أثر. أخيراً، توقّفت السيارة في الباحة، حيث كان بانتظارهم رجل. قال بريمو مشيراً إليه: «هذا خالي طوني وزوج ماما».

ترجّل قبلهما وتقدّم من طوني يصافحه قبل أن يلتفت إلى الخلف ويشير إلى جاستين الذي نزل لتوه من السيارة. وتكرر الأمر مرة ثانية، إذ بدت الصدمة على وجه طوني الذي رأى ملامح زوجته في ابنها.

قدّمهم بريمو إلى بعضهم البعض بهدوء، فتمتم الرجلان بالكلام المناسب قبل أن يدعوهم طوني كلهم للدخول. ومع اقترابهم من الباب الرئيسي، استطاعت إيفي أن ترى وجوهاً عند النوافذ، خمّنت أنها تعود للأبناء الآخرين الذين تنحوا جانباً ليفسحوا المجال لأمهم أولاً كي تقابل ابنها.

عندما أصبحوا في الداخل، تابع طوني رينوتشي تأمّل جاستين للحظة قبل

أن يقول: «نعم، أكّد لنا بريمو أنك الرجل المطلوب، وأرى الآن أنه محق. لو لم أصدّق ذلك لما تركتك تقترب من زوجتي، فمنذ أخبرتها بالأمر وهي متأثرة جداً ومشوّشة، إلاّ أنها متشوقة لرؤيتك. إنها تنتظرك في تلك الغرفة».

رمق جاستين إيفي بنظرة، إلاّ أنها تراجعت إلى الخلف قائلة: «هذا اللقاء بينك وبينها فقط».

فأومأ برأسه موافقاً، فيما فتح طوني باباً. في الداخل، جلست امرأة قرب نافذة عريضة، فأضفى الضوء من خلفها غموضاً على ملامحها وجعلها غير واضحة. وقفت مع دخول جاستين، ولمحت إيفي الاثنين يتقدمان ببطء نحو بعضهما البعض. توقّف كلاهما للحظة، ثم ارتفعت يدا هوب رينولدز نحو فمها في حركة دهشة سعيدة. وبعدئذ، ارتمى الاثنان في حضني بعضهما البعض، وأغلق طوني الباب بهدوء.

قال وهو يبتسم: «آنسة إيفي، سامحيني لأنّي لم أرحّب بك كما ينبغي. أرجوك، اعلمي أننا نرحّب بك في منزلنا».

وفتح ذراعيه مرحّباً بها على الطريقة الإيطالية، فتركته يحتضنها كأب حنون.

وأخيراً قال بعد أن أطلق سراحها: «سترشدك خادمة زوجتي إلى غرفتك. وعندما تجهزين، انزلي لمقابلة بعض الشبان الذين يقيمون في هذا المنزل».

تناهى إلى سمعها ضحك خافت من أولئك الشبان الذين ظلوا في أماكنهم، مطيعين الأوامر التي صدرت عن والدهم.

أرشدتها ماريا الخادمة إلى غرفتها في الطابق العلوي. بدا المكان واسعاً ببلاطه الأحمر والبني الدافىء اللون، وأثاثه التقليدي الذي طغى عليه الخشب اللامع. لاحظت أنّ المكان أنيق وقد كلّف مبالغ طائلة.

وبعد أن اغتسلت، جاء بريمو ليرافقها إلى الأسفل حيث أخذها طوني بين ذراعيه مجدداً، وقال: «أخبرنا بريمو كل شيء، كيف ساعدت جاستين وشجّعته على البحث. سأطلع زوجتي على ذلك. أما الآن، فعليك أن تتناولي بعض الطعام وستقابلينها لاحقاً».

قادها إلى الشرفة المطلّة على الخليج، فوقفت تتأمل الجمال الممتد أمام ناظريها، حتى عاد طوني حاملاً معه كوباً من العصير اللذيذ.

بعدئذٍ بدأ الأبناء الآخرون بالتوافد للتعرّف إليها... لوك الابن بالتبني؛ فرانشيسكو ثمرة الحب؛ كارلو وروجيرو التوأمان اللذان بلغا أواخر العشرينيات والمليئان بالنشاط والشباب والجاذبية. وبالرغم من أنهما ليسا توأمين متطابقين من حيث الشكل، إلاّ أنهما يشبهان بعضهما البعض بشكل يظهر أنهما أخوان.

أمطروها بوابل من الأسئلة عن جاستين، فيما سعوا لإعلامها بوضوح أنهم معجبون بها لشخصها. غمزها روجيرو بعينه وصفّر بنعومة إعجاباً ما دفع كارلو لأن يقول له بحدّة: «تأدّب!».

تكلّم بالإيطالية، فقالت إيفي على الفور باللغة نفسها: «لا بأس».

أسعدهم أن تتكلم لغتهم، فعبّروا عن ذلك بصراحة ووضوح. انهالت عليها الأسئلة عن نفسها، إلاّ أن روجيرو كان الوحيد الذي تجرأ على أن ينظر إلى يدها اليسرى ويقول: «إذاً، أنت لست متزوجة من جاستين؟ ثمة أمل لنا كلنا؟».

عندئذ، تدخّل والده مؤنباً: «تأدّب يا ولد!».

صمت روجيرو على الفور، إلاّ أنه لم يهدأ، بل غمز إيفي بطرف عينه غمزة تواطؤ.

قال فرانشيسكو: «تحدّث بريمو عنك وكأنك فعلاً زوجة أخينا».

فقالت إيفي: «أنا لم أعرف جاستين إلا منذ أسابيع قليلة».

وقال طوني: «لكنك أنت من ساعده ليضع قدمه على أول الطريق التي قادته إلى هنا، وأنت من اختار أن يصطحبها معه إلى هنا، وهذا يعني أنك زوجته في قلبه».

ثم رفع صوته ليردف: «وستعاملين على هذا الأساس من قبل كل رجل هنا».

وهمس الكل: «حاضر يا أبي».

استدار طوني نحوها ليضيف: «إذا ما أزعجك أحد أبنائي، فأبلغيني على الفور يا آنستي، وسأوسعه ضرباً».

فأكّدت له ضاحكة: «أنا واثقة من أنّ هذا لن يكون ضرورياً».

مرّت ساعة وطّدت إيفي خلالها علاقتها بهم. شعرت بالراحة والسرور بينهم، وتمنّت لو أن جاستين يحسّ بمثل إحساسها أيضاً. فكّرت فيه مع هوب، الأم التي أثّرت في حياته كلها لأنها غابت عنها ولم تكن جزءاً منها. كيف تراه يواجه الأمر؟

أخيراً، تناهى إليهم صوت من الخارج. وقال أحدهم بصوت أقرب إلى الهمس: «ها هما قادمان».

وما هي إلاّ لحظات حتى ظهرت هوب رينوتشي وهي تتأبط ذراع جاستين. خرج الاثنان معاً إلى الشرفة. توجّهت هوب نحو زوجها وهي تبتسم عبر دموعها، وقالت: «لقد عاد إليّ يا طوني. لطالما قلت إنه سيفعل».

فقال بنعومة يطمئنها: «طبعاً فعل يا عزيزتي».

أبقى جاستين عينيه مركزتين على أمه، وكأن ما يجري تسبب له بدوار وتشوّش. حاولت إيفي أن تتخيّل ما تعنيه هذه اللحظة له، لكن ما يجري يتجاوز الخيال. راقبت وجهه بحثاً عما يشير إلى انفعاله، لكنها لم ترَ شيئاً. بدت تعابيره جامدة وقاسية قليلاً، أشبه بما كانت عليه حين أخبرها قصته لأول مرة.

أخيراً، التقت عيونهما، فرأت فيهما ارتباكه وتشوشه. سنوات من اجترار الرفض والنبذ تركته عاجزاً عن القيام بأيّ ردّ فعل. ابتسمت له محاولة أن تطمئنه، وأن تؤكد له أن الشعور سيأتي لاحقاً عندما يصبح بعيداً عن الأضواء. في هذه اللحظة الحاسمة حيث ينبغي أن يسيطر الفرح والشعور بالانتصار، انطوى مجدداً على نفسه وتألم قلبها من أجله.

الآن وبعد أن رأت إيفي هوب عن قرب، فهمت لما لاقى جاستين القبول على الفور. فكما قال بريمو، الشبه بينهما ملفت. تأمل كارلو وروجيرو أخاهما الجديد باهتمام قبل أن يصافحاه. بعدئذ، تقدّم الكل لمصافحته، ما يعني تقبّله

كفرد من أفراد الأسرة. قالت هوب وهي تتلفت من حولها: «والآن، سيبقى أبنائي كلهم إلى جانبي».

شدّ طوني إيفي إلى الأمام ليقدّمها فاستقبلتها هوب بشكل ساحر، إلاّ أن الحدة في العينين الزرقاوين لم تفت إيفي التي أدركت أنها تخضع لفحص دقيق.

قامت هوب بارشاد جاستين بنفسها إلى غرفته، متمسكة بذراعه بطريقة سرّ إيفي أن تراها. ما من شيء يمكن أن يفيد جاستين بقدر تمسّك أمه به وإعلان تملّكها له على هذا النحو. اما هي فأمضت ما تبقّى من فترة بعد الظهر مع التوأمين، تتعلم بعض الكلمات النابوليتانية، ثم أرشدها طوني إلى مكتبته، وسُرّ للغاية لرؤيتها كتبه الإيطالية القديمة باهتمام.

قال بإعجاب: «أنت خبيرة في لغتنا. انتظري حتى تري الأشخاص الذين أستطيع جمعك بهم. كم أتوق لأن تصبحي فرداً من أفراد الأسرة».

فقالت بسرعة: «أرجوك...».

قال وهو يرفع يده: «طبعاً، أفهم أنّ المسألة حساسة. لن أفتح هذا الموضوع مجدداً».

اجتمعت العائلة كلها من جديد تلك الليلة لتناول العشاء. جلس جاستين قرب هوب التي انفردت بالتحدّث إليه. وسرت إيفي حين لاحظت أنّ تصرفاته أصبحت أقل تشنّجاً وتكلفاً، إذ راح يبتسم لأمه ويتحدّث معها بشكل طبيعي.

سألته هوب: «متى سألتقي ابنك؟ حفيدي الأول. حفيدي الوحيد حتى يقرر أحد أبنائي الآخرين القيام بواجبه، وهذا أمر يبدو لي مستبعداً».

ارتسمت تكشيرات على وجوه الجالسين إلى الطاولة، وكثُرت محاولات التنصّل، ما يظهر أنّ هذا الموضوع موضوع خلاف قديم. قالت هوب: «أرسل بطلبه. أحضره إلى هنا في الغد».

تكلّمت بنبرة ساحرة وهي تبتسم ابتسامة مشرقة لجاستين، إلاّ أن إيفي لاحظت نبرة الأمر في صوتها. إنها امرأة اعتادت أن تعلن عما ترغب فيه فتتمّ تلبية رغباتها.

قال جاستين: «هذا مبكر جداً. عليّ أن أسافر وآتي به...».

- لا، لا، أخبرتني عن مدبرة منزلك... ليلي... يمكنها أن تحضره.

فقالت إيفي: «إنها تخشى السفر بالطائرة، هذا ما قالته لي ذات مرة، كما أنّ مارك يجب ألاّ يأتي وحده. سأسافر وأحضره. سأغادر غداً وأعود بعد غد».

أبدى الشباب انزعاجهم من خسارتها. إلاّ أنّ هوب شكرتها بطريقة قطعت الطريق على أيّ نقاشات، فيما رمقها جاستين بنظرة امتنان.

وعند انتهاء العشاء، أعلنت إيفي رغبتها في الخلود إلى النوم على الفور لتتمكّن من الرحيل في الصباح الباكر. ودّت لو تتكلم مع جاستين على انفراد إنما يمكن لهذا أن ينتظر، فوقته الآن ملك لهوب.

إلاّ أنها وفي وقت لاحق من تلك الليلة تلقّت زيارة مفاجئة. ففيما كانت تهم بإطفاء النور، سمعت قرعاً خفيفاً على بابها. كانت تلك هوب التي قالت: «أرجو ألاّ أكون قد حضرت في وقت متأخر جداً، لكنني أودّ التحدث إليك. لم تسنح لنا الفرصة لنتعرف إلى بعضنا البعض، إلاّ أنني أعتقد أنّ ما من أحد يعرف ابني أفضل منك».

قالت إيفي بتردد: «لا أظن أن هذا صحيح حقاً. فأنا لا أعرفه سوى منذ بضعة أسابيع».

هزّت هوب كتفها بشكل معبّر: «هل الوقت مهم فعلاً؟ شيء ما ينبئني بأنك تعرفينه بعد شهر أكثر مما يعرفه أيّ شخص آخر أمضى معه العمر كله».

وافقتها إيفي الرأي: «لا أظنه سمح لنفسه بالتقرّب من أيّ شخص، باستثناء مارك».

- نعم، مارك! كم أتوق للقائه! تطوعك لإحضاره كرم كبير منك. سأتركك الآن لتنامي، وأتمنى لك رحلة موفقة.

ثم غمرت إيفي، فلفّها عطرها، ثم غادرت بأناقة بالغة.

وجدت إيفي مارك بانتظارها، متشوقاً لسماع الأخبار التي تحملها. وكان جاستين قد أطلعه على جزء من القصة فقامت إيفي بإكمالها الآن. في رحلة العودة إلى نابولي، راح ينظر إلى ساعته مراراً وتكراراً.

مازحته: «أتعدّ الدقائق؟».

أومأ برأسه: «سنحط بعد ثلاثين دقيقة، وسنحتاج إلى ثلاثين دقيقة أخرى لإنهاء أوراقنا والخروج».

- وعندئذ، ستلتقي عائلتك الجديدة.

- ستكونين حاضرة أيضاً؟ أعني.. أنت جزء من العائلة الآن. ألست كذلك؟

- حسناً! ليس فعلياً.

- لكنك أنت وأبي... أنت تعلمين..

- لست واثقة من أنني أعلم.

- أنت تعلمين! إنه يسعد دوماً حين تكونين حاضرة.

ها إنّ أحدهم يفترض مجدداً أنها وجاستين مرتبطان إلى الأبد. اختبرت الفكرة، راغبة في اكتشاف ما إذا كان جرس الانذار القديم سينطلق، إلاّ أنها شعرت بدلاً من ذلك بابتسامة عريضة ترتسم في داخلها.

كما توقعت، كان جاستين وهوب بانتظارهما في المطار. راحت هوب تتأمل الفتى فيما هو يقترب، وعندما وصل إليهما قال جاستين: «مارك، هذه جدتك».

كان مارك وإيفي قد تمرّنا على هذا الموقف طيلة الرحلة في الطائرة، وهو الآن جاهز. مدّ يده بوقار، وقال بالإيطالية: «مرحباً سيدتي».

صرخت هوب سروراً، وكانت على وشك أن تعانقه حين تذكّرت موقف الفتيان من احتضانهم في العلن أمام الناس، فتراجعت ومدّت يدها تصافحه، وهو تصرّف جعلها تكسب ودّ مارك.

وفيما راحا يقيّمان بعضهما بعض، انتحى جاستين بإيفي جانباً وقال: «كانت هوب تنتظر عودتك بفارغ الصبر».

وصمت، ثم أضاف بنعومة: «وأنا أيضاً».

في طريق العودة إلى المنزل، بقوا متنبّهين لحاجات مارك، حاضرين لتسهيل دخوله إلى كنف هذه الأسرة الجديدة والغريبة عنه. إلاّ أنه لم يكن ثمة حاجة إلى ذلك. فهوب ومارك أضحيا على الفور على موجة واحدة وراح يناديها بعد بضع

دقائق باسم نونا، وهو المرادف الإيطالي لكلمة جدتي.

بعدئذ، بدا كأن شريط وصول إيفي وجاستين قبل بضعة أيام يُعاد بثّه. فقد كان طوني والأبناء في انتظارهم في الڤيلا حيث رحّبوا هذه المرة بحرارة بمارك الذي بدا مستمتعاً بما يجري من حوله. واستطاعت إيفي أن ترى أنه سينسجم مع هذه العائلة بسهولة أكثر من جاستين.

رافقها جاستين إلى غرفتها في الأعلى وأغلق الباب خلفهما بحزم قبل أن يأخذها بين ذراعيه.

همس: «اشتقت إليك. أين غبت هذا الوقت كله؟».

مازحته بسعادة: «إنه يوم واحد».

- أنت تعلمين أنني أحتاج إليك.

- لا تقل لي إنك كنت تفكر في بوجود عائلتك الجديدة التي عليك أن تعتاد عليها. كيف تسير الأمور مع أمك؟

- أعلم أنّ هوب أمي، يكفي أن ينظر المرء إلينا ليعلم ذلك. لكن... ثمة جزء مني لا يصدّق ذلك. ما زلت أتوقع أن أستيقظ وأكتشف أن هذا كله مجرد حلم.

فقالت بحنان: «لكنك لن تفعل، فهذا حقيقي. إنها أمك فعلاً، ولعل أفضل ما في الأمر هو أنها لم تتخلَّ عنك. لم تنبذك، بل أحبتك منذ اللحظة الأولى، وهي لا تزال تحبك. هذا ما هو رائع في الأمر، فحبّها أشبه بقوس امتدّ على طول السنوات منذ تلك اللحظة وحتى الوقت الراهن».

- نعم، بالطبع. أنت تجيدين التعبير، لكن الأمر يتطلب وقتاً أطول معي أنا.

- ستجري الأمور على ما يرام يا عزيزيّ... كل شيء سيكون على ما يرام.

لاحقاً ستتساءل إيفي كيف أمكنها أن تكون غبية وعمياء إلى هذا الحدّ، بحيث لم ترَ الهوة التي انفتحت تحت قدميها. أما هو فاستطاع أن يراها، لكنه لم يعرف كيف يخبرها إلاّ بعد فوات الأوان.

١٠ - نوايا خفية

كانت ڤيلا رينوتشي في حالة غليان، إذ تضافرت الجهود كلها لإنجاح الحفل الذي ستقيمه هوب لتعرّف ابنها جاستين على أصدقائها. سينظّم الحفل على غرار حفلات عيد ميلادها، إنما سيكون أكثر ضخامة، إذ يجب أن يعرف الجميع أنها عثرت على ابنها.

وفيما شغلت هوب نفسها بلوائح الطعام والشراب، عملت العائلتان على توطيد علاقتهما، فأمضى جاستين وقته مع طوني وبريمو. علاقته ببريمو سادها الانفعال قليلاً، لكنه بذل قصارى جهده لكي يتصرّف بودّ، إذ أدرك أنه يدين له بالكثير. كان كلاهما رجل أعمال، ولبريمو مصالح في إنكلترا، لذا أمكنهما أن يجدا نقاط مشتركة بينهما على هذا المستوى.

غادر فرانشيسكو ولوك الڤيلا لمتابعة أعمالهما، على أن يعودا لحضور الحفلة. كان للتوأمين غرفتان في الڤيلا رغم أنّ كلاً منهما يملك شقة في نابولي حيث يعيشان على هواهما، على حدّ تعبير والدتهما.

إلاّ أنهما تركا الشقتين خاليتين حالياً، وخصصا وقتيهما لتسلية إيفي ومارك. تعلّق مارك غريزياً بكارلو كعمه المفضل، وهذا ليس مفاجئاً بحسب قول توأمه ذي اللسان اللاذع، بما أن عقل كارلو ليس سوى عقل طفل.

أما إيفي فبدت أنها تميل إلى روجيرو الأسمر. فهو شاب هادىء، شديد الاهتمام، ذو قوة كامنة تذكّرها أحياناً بجاستين. لكن حب حياته العظيم هو دراجته النارية. وفي أحد الأيام، اختفيا لساعات بعد أن دعاها إلى اكتشاف قدرات دراجته. مرّت لحظة توتر قبل رحيلهما، حين شرح روجيرو رسمياً لجاستين أنّ إيفي سترافقه بعد الظهر قائلاً: «بعد موافقتك».

فقالت: «مع موافقته أو من دونها، أنا لا أحتاج إلى إذن. هيا بنا».

لامست خد جاستين بسرعة وخرجت متشوقة لتجربة اللعبة الجديدة.

أمضيا في الخارج وقتاً أطول مما توقعت، وعادا أخيراً إلى الڤيلا مبتهجين وعلى وفاق تام، ليجدا الأسرة كلها تراقب وصولهما من على الشرفة. صرخ بهما كارلو: «تأخرتما على العشاء، فأكلنا الطعام كله».

وصاح مارك: «كان العشاء لذيذاً، أفضل ما أعدّ يوماً».

فقالت هوب مبتسمة: «لكننا احتفظنا لكما ببعض منه. سيكون جاهزاً فور انتهائكما من الاغتسال. لا داعي للعجلة».

كانت الوجبة لذيذة تماماً كما قال مارك. تناولت إيفي الطعام مع روجيرو فيما ساعد مارك في خدمتها من دون أن يتوقف عن الكلام للحظة، وفيما لم يكن ثمة أثر لجاستين عندما رأته في وقت لاحق، سألته: «ألن تخبرني عن يومك؟».

- أظن أنني سأتمكّن من عقد بعض الصفقات مع بريمو. ثمة أمور كثيرة ينبغي مناقشتها، لكن أتوقّع أن يتحقق ذلك.

- وهل ستكسب الكثير من المال؟

- آمل ذلك.

- حسناً! هذا يعني أن يومك كان جيداً.

- آمل أن تكوني قد استمتعت بيومك.

فقالت بسعادة: «كان رائعاً. ما إن نعود إلى إنكلترا حتى أبيع دراجتي النارية وأشتري واحدة كهذه. السرعة! لم أختبر يوماً شيئاً مماثلاً».

قال جاستين بهدوء، على الرغم من لمحة الغضب في صوته: «كنت قلقاً عليك».

- لا حاجة لذلك، فأنت تعلم أنني كنت مع روجيرو.

- تقودين دراجة نارية جديدة على طرقات جديدة. لا أرغب حتى في أن أفكر في السرعة التي سجّلتها.

فقالت بجدة: «إذاً، لا تفعل. يمكنني أن أسيطر على دراجة مسرعة».

- تسيطرين؟ أتعنين أنه تركك تقودين ذاك الشيء بنفسك؟

- نعم، ففي النهاية، ما كنت لأكتفي بالركوب خلفه.

- أنت مجنونة.

- لطالما علمت ذلك. ما الذي اختلف الآن؟

صرخ بها: «شعرت بالقلق عليك، ألا يمكنك أن تفهمي هذا؟».

تملّكها الندم على الفور، فقد نسيت كم يتأثر بسهولة. فقالت بلطف: «نعم. يمكنني أن أفهم، لكن لا تقلق عليّ. كنت بحاجة إلى تلك النزهة على الدراجة النارية، إذ أخرجت الجنون من جسدي لفترة على الأقل».

- حسناً! عديني بألاّ تعيدي الكرّة.

- لن أفعل، لأنني سأرغب في القيام بجولة ثانية قبل رحيلي من هنا.

- لكن لا تقودي الدراجة. لا بأس إذا ركبت خلفه، لكن...

- جاستين، توقف. أنا أقرر ما يناسبني وليس أنت. والآن فلنترك الموضوع عند هذا الحد.

بدت عيناه داكنتين وغاضبتين: «لست مستعداً لترك الموضوع. لا أرغب في رؤيتك تخاطرين بحياتك، ولا أحب أن تتسكّعي لساعات مع رجل آخر...».

- رجل آخر؟ أتعني ذاك الفتى الذي يصغرني بسنتين؟ هذا هراء! أنا أشبه بأخت كبرى له.

- وهل عاملك كأخت كبرى؟

- بالطبع!

حاولت أن تمحو ذكرى ذراعي روجيرو حول خصرها عندما ركب خلفها، ولمعان الاعجاب في عينيه، إعجاب لا علاقة له بالدراجات النارية. لقد عبث معها وتراجع بذكاء حين صدّته بضحكة. لم يزعجها، فالعبث هو إحدى مسرات حياتها لكنها لطالما عرفت متى تتوقف. إلاّ أن جاستين لن يتمكّن يوماً من تصديق هذا. لعل الوقت حان للتخلي عن العبث.

- كل ما في الأمر هو أنه سعى لتسليتي كي يتركك حراً لتبقى مع أمك.

- هوب مشغولة جداً. كان بإمكاننا أن نمضي فترة بعد الظهر معاً.

- وتفوّت عقد صفقة مع بريمو؟ اسمع، أنا آسفة. لننسَ الأمر.

- ما دمت تعدينني بألاّ تفعلي هذا مجدداً.

جزء منها أراد أن يوافق على كل ما يسرّه، لكن جزءاً آخر لم يستطع أن يحتمل التملّك وإن كان صادراً عنه. قالت بهدوء: «قلت لك دع الأمر وتوقّف عن محاولتك السيطرة عليّ».

أخذت نفساً حاداً، ورفعت ناظريها لتجد في عينيه ما يشبه الخوف. حدّقا في بعضهما البعض، وقد صدمهما هذا الشجار السخيف الذي برز من العدم وأخذهما على حين غرّة.

تراجع جاستين سريعاً وقال: «آسف، أنا آسف. لا أعرف ما الذي دهاني».

تقدّمت منه وقالت بنعومة: «عزيزي...!».

فقال بسرعة: «انسي الأمر وحسب».

بعدئذ، استدار وابتعد عنها من دون أن يلقي عليها نظرة واحدة.

بقيت إيفي وحدها، وهي تشعر بالتعاسة والغضب من نفسها، لأنها لم تعالج الموضوع بشكل أفضل. تناهى إليها صوت من الأعلى فرفعت رأسها لترى هوب عند أعلى السلالم. لم تكن المرأة الأخرى تنظر إلى إيفي، وبعد لحظات ابتعدت، لم يكن بالإمكان معرفة ما سمعته من حوارهما.

بعدئذ، نسيت إيفي المسألة برمتها في خضم التحضيرات الأخيرة، إذ أمضت يوماً رائعاً جالت فيه على محال الموضة في نابولي، وعادت منها بثوب من الحرير الأسود منحها شخصية جديدة، مختلفة تماماً عن تلك المرأة الصبيانية الشكل التي تقود دراجة نارية. بدت في هذا الفستان أنيقة ومحنّكة، وهي ستشرّف جاستين.

دق على بابها فيما كانت تحاول أن تقرر أيّ مجوهراتها تضع. كانت تملك القليل منها، فقد صرفت معظم مالها على دراجتها النارية. لكن يبدو أن جاستين جاءها بالحل، إذ قدّم لها عقداً وقرطين من الماس، تتماشى بشكل

ممتاز مع الفستان. سألته بسرور: «هل اشتريتها لي؟».

- لا! فهي من هوب. وقد طلبت مني أن أعطيك إياها.

خطر لها أنه يشير دائماً إلى أمه باسم هوب، لكن جمال الماس صرف انتباهها عن هذا الموضوع فلم تعره الكثير من الاهتمام.

سألته متعجبة: «هل اشترتها لي؟».

- لا، أظنها كانت لها.

بعد قليل قال لها: «أنا آسف، ما كان ينبغي أن أغضب لأنك خرجت ذاك اليوم. أعلم أنك مجنونة بالدراجات النارية».

ردّت وهي تبتسم: «لن أعلّق على هذه الإهانة. على أيّ حال، كانت الغلطة غلطتي أيضاً. تشاجرت مع روجيرو لأنه طلب منك الإذن لأخرج معه، فتحمّلت أنت عاقبة الأمور. كان عليّ أن أتذكر أنه إيطالي، وأنهم يلتزمون أكثر منا بالأعراف والتقاليد».

لامس خدها بأطراف أنامله فارتعشت سروراً، إلاّ أنها قالت له بصوت مرتجف: «لا أظن أن عليك أن تفعل هذا ونحن على وشك النزول إلى الحفلة».

تنهّد: «لا! هذا التصرّف ليس حكيماً. أردتك وحسب أن تعلمي... حسناً! على أيّ حال. هلاّ نزلنا؟».

ما إن وصلا إلى الأسفل حتى أدركت إيفي أن الأمسية ستكون ناجحة جداً. كان الطعام موضوعاً على طاولات طويلة، حيث تنوّعت الأطباق من الفطائر النابوليتانية إلى الأرضي شوكي مع البطاطا الحلوة، والفواكه والكريمات وأفضل العصائر المقدّمة في أكواب من الكريستال.

لم تترك هوب شيئاً للصدفة، وهذه ميزة فيها بحسب ما لاحظت إيفي. فالفتاة الشابة التي سُرق منها طفلها عنوة كبرت لتصبح امرأة تتمتع بالسلطة، وتفرض إرادتها على الحياة.

وقف جاستين ومارك إلى جانبها مع وصول مئات الضيوف، وفي غضون ساعة أصبح كل من في الغرفة يعرف من هو. لعلها ليلة هوب، لكنها ليلته هو أيضاً.

بعد أن تم الاعتناء بكافة الضيوف، بحثت إيفي عن هوب وقالت لها وهي تلمس العقد الماسي: «شكراً لك. إنها جميلة. قال جاستين إنها لك».

- نعم، لقد قدمها لي زوجي منذ سنوات. يعلم طوني أنني أعطيتك إياها، وهو موافق على هذا. نحن نأمل في أن تصبحي قريباً فرداً من أفراد الأسرة.

وابتعدت سريعاً من دون أن تترك لإيفي الفرصة لتؤكد هذا الكلام أو تنكره. هذا هو أسلوبها. لقد أبلغتها هوب رينوتشي بأمنياتها. أدركت إيفي متسلية أنهم لا يرحبون بها في الأسرة بقدر ما يأمرونها بالانضمام إليها.

قال لها صوت قربها باللغة الإيطالية: «تبدين وحيدة».

كان هذا بريمو.

- لا، لست وحيدة. كنت أتحدّث لتوي مع هوب.

سألها بريمو مبتسماً: «وهل أطلعتك أمي على مخططاتها لك؟».

- شيء من هذا القبيل.

- لا تنزعجي منها يا إيفي. إن قلبها طيّب وتريد أن يكون الكل سعداء مثلها.

- أعلم ذلك ولست منزعجة.

مدّ يده قائلاً: «ها هي الموسيقى تعزف، فارقصي معي».

وفيما هما يدوران في حلبة الرقص أضاف: «أنت محط الأنظار الليلة. ما من رجل استطاع أن يرفع عينيه عنك، والكل يحسد جاستين».

فقالت له برزانة: «أوقف هذا الهراء».

ضحك فيما تابعا الرقص لبعض الوقت. ما قاله صحيح، فهي كانت فعلاً محط الأنظار، إذ راح الرجال يطالبونها بمراقصتهم، لكنها رفضت المشاركة في الرقصة التالية وبقيت تتحدّث إلى بريمو.

رأت جاستين يتجه نحوهما، وتساءلت إن كان سيطلب منها أن ترقص معه. لكن شيئاً ما استوقفه وهو يقترب فتنحّى جانباً ليأخذ امرأة جميلة بين ذراعيه. قالت إيفي: «بريمو، عليك أن تتوقف عن فعل هذا».

فسألها بنبرة بريئة: «ماذا أفعل؟».

- أنت تتحدث إليّ بالإيطالية، وهذا ما يزعج جاستين. لأنه يستثنيه من الحديث، وأنت تعلم هذا.

هزة كتفه جاءت معبّرة: «هه..! أتظنين أنه يشعر بالإقصاء الآن بعد أن تم إشراكه في الكثير كما لم يحصل معه من قبل؟ إنه البطل، رجل الساعة».

حملقت فيه: «أنت لا تحبه، أليس كذلك؟».

- ولمَ فوجئت؟ فهو ليس بالرجل الذي يُحب بسهولة.

- أفترض أن... كل هذا الكلام عن الأخوة.

- لكننا لسنا أخوين. ما من من رابط دم بيننا أبداً. إنه ابن الأم التي ربتني... وأنا لست كذلك.

نبرة المرارة في صوته بدت أشبه بإزالة عصابة عن عينيها، فقالت مستنكرة: «أنت غيور».

- طبعاً! ولمَ لا؟ ألأنني رجل راشد، وأنت تظنين أن الأطفال وحدهم يشعرون بالغيرة؟

أجابت ساخرة: «أفترض أني عنيت شيئاً كهذا، لكن هذا هراء طبعاً. ثمة جزء من الطفل في داخل كل واحد منا، جزء يرفض أن يكبر، فيبقى يرافق الراشد كشبح صغير، يظهر أحياناً ويلوّن أفكاره ومشاعره».

أومأ بريمو بعد لحظة يوافقها الرأي، ثم قال بصوت أكثر تعاطفاً: «فهمت. هذه حاله أيضاً».

- هذا طبيعي. كيف كان شعوره برأيك وهو يظن أن أمّين لا ترغبان فيه؟ ما من داعٍ للشعور بالغيرة.

- أنتَ تفاجئينني يا إيفي. فأنت من بين كل الناس يجب أن تفهمي الإيطاليين جيداً، إذ أعتبر نفسي إيطالياً رغم أنّ أبي إنكليزي. نحن لسنا كالبريطانيين الباردين. لا تزال العائلة بالنسبة إلينا محور الحياة، والأم هي نقطة ارتكاز العائلة. كان هذا صحيحاً في الماضي وسيبقى كذلك.

«هوب هي الأم الوحيدة التي عرفتها. وقد كنّا مقربين جداً من بعضنا البعض في طفولتي. وبقيت لسنوات أعتبر نفسي ابنها البكر ثم اكتشفت أني

لست كذلك، ورحت أتساءل إن كانت علاقتنا المميّزة مجرد وهم. هل كنت مجرد بديل عن الابن الذي فقدته؟

كلماته ذكّرتها بما قاله جاستين نفسه عن والديه بالتبنّي.

وذكّرت إيفي بريمو: «لكنك أنت من عثر عليه، بعد أن بحثت عنه لسنوات».

- من أجلها. أردتها أن تكون سعيدة، وهي كذلك الآن، هذا يسرّني. لكنني أيضاً...

وابتسم لها ابتسامة مرتبكة قبل أن يردف: «.. أشعر بالغيرة».

- لكنك لن تدع هذا يفسد الأمور، أليس كذلك؟

- بالطبع لا. فهو أخي على الرغم مما قلته سابقاً. إنما من قال إنّ الأخوة يجب أن يتفقوا معاً طيلة الوقت؟

ابتعدت عنه، مطيلة التفكير في كلماته ومحاولة تجاهل الصوت الخافت في عقلها الذي أعلمها أنّ ثمة خطأ ما. ظاهرياً، كانت الأمور تسير على خير ما يرام بالنسبة إلى جاستين، لكن... لكن...

- هل حان دوري الآن؟

والتفتت لترى جاستين الذي قال ساخراً: «لم أتمكن من الاقتراب منك طيلة الأمسية».

مازحته: «يمكنني أن أقول الكلام نفسه عنك. لا بدّ أنني المرأة الوحيدة التي لم تراقصها».

- والمرأة الوحيدة التي أريد أن أراقصها.

وفتح ذراعيه فارتمت بينهما قائلة: «أنا سعيدة جداً من أجلك. من كان ليصدّق أنّ الأمور ستجري جيداً على هذا النحو؟ إنه حلم يتحقق».

- لا بل أكثر من ذلك. أنّى لي أن أتخيّل هذا؟

علّقت بسعادة: «ما كنت لتتخيّل هذا أبداً. وهذا يثبت أننا لا نعرف أبداً ما يخبئه لنا المستقبل».

شدّها إليه أكثر، فألقت برأسها على كتفه، فيما انسابت الموسيقى ناعمة.

عادت بالذاكرة إلى بضعة أسابيع خلت قبل أن تعرف هذا الرجل. والآن جلّ ما تريده هو البقاء بين ذراعيه.

رفعت ناظريها إليه متوقعة أن تراه يشاركها رضاها وسرورها، إلاّ أن ما قرأته على وجهه صدمها.

فبدلاً من الاستمتاع والرضا لم ترَ سوى التشوّش ونوعاً من الحيرة والارتباك. أدركت مذعورة أنها لم ترَ يوماً رجلاً يبدو يائساً إلى هذا الحدّ.

في اليوم التالي، ناشدته هوب: «هل عليك أن ترحل؟ لقد استعدت ابني لتوي فهل سأفقده مجدداً بهذه السرعة؟».

قال جاستين: «لن تفقديني، فسأعود قريباً إنما عليّ أن أتفقد أعمالي».

وراح مارك يرجوه: «أرجوك يا أبي، هلاّ بقينا بضعة أيام أخرى؟ الحياة رائعة هنا، وإيفي تودّ البقاء أيضاً، أليس كذلك؟».

هزّت رأسها وهي تبتسم: «عليّ أنا أيضاً أن أعود إلى إنكلترا، لكن ربما...».

خطرت لها فكرة مغرية، فتبادلت نظرة صامتة مع هوب التي فهمت مرادها على الفور، وابتسمت مبتهجة ثم قالت: «على الأقل دع مارك هنا لبعض الوقت. هكذا، سأكون واثقة من أنك ستعود».

رمق مارك والده بنظرة متضرعة، فأومأ جاستين برأسه وقال: «طبعاً. إذا كان يرغب في ذلك».

شرع مارك يرقص ابتهاجاً، وانضم إليه عمّاه كارلو وروجيرو، فاسترخى جاستين وأعطى موافقته: «سآتي لاصطحابه في أيلول».

وحثّه هوب: «وسترافقك إيفي أليس كذلك؟ عندئذ، يمكننا أن نناقش مسألة زواجكما. ربما يمكننا عقد قرانكما هنا».

فقال جاستين بسرعة: «يمكننا أن نتحدث في هذا الموضوع لاحقاً يا أمي».

- طبعاً يا بني. أفهم وجهة نظرك... أنا أستعجل الأمور دوماً. أليس كذلك؟ أضع الخطط والمشاريع للجميع ولا أفسح المجال لأحد كي يتدخّل ويعطي رأيه. في الواقع، أنا متشوقة ومتحمسة جداً لتصبح إيفي فرداً من

أفراد الأسرة.

وطبعت قبلة حارة على خدّ إيفي مضيفة: «كنّتي الأولى. كم يسرّني أن...».

عندئذ همس بريمو: «أمي، ها أنت تعيدين الكرّة».

ضحك الجميع باستثناء جاستين الذي اكتفى برسم ابتسامة مصطنعة على وجهه. بدا شارد الذهن، لكن إيفي كانت منشغلة بالتفكير في الوقت الرائع الذي ينتظرهما حين يصبحان وحيدين معاً، بحيث لم تجد ذلك نذير سوء.

رافقهما الجميع إلى المطار حيث قبّلتها هوب هامسة: «أراك قريباً يا ابنتي العزيزة».

قال جاستين بعد أن أقلعت الطائرة: «اتصلت بتوم وطلبت منه أن يلاقينا في المطار».

وتوم هو السائق الخاص الذي يعمل لديه.

- هل سيوصلني إلى شقتي أم أنّ عليّ أن أطلب سيارة أجرة؟

فقال بنبرة تكاد تكون غاضبة: «لا تكوني سخيفة. سترافقينني إلى المنزل. هذا إذا... إذا شئت ذلك».

ضحكت: «أردت أن أعرف نواياك».

وصلا إلى البيت في وقت متأخر. فتحت ليلي الباب لهما، وابتسمت لرؤية إيفي. كانت قد حضّرت لها غرفة بناءً على تعليمات تلقّتها، فأرشدتها إليها فيما سار جاستين في أثرهما.

قالت بعد أن وُضعت حقائب إيفي في غرفة النوم: «حضّرت لكما عشاءً بارداً ووضعته على الطاولة في الأسفل. والآن، سأخلد إلى النوم إذا لم يكن لديكما مانع».

فقالا معاً: «تصبحين على خير».

ما إن أغلقت الباب خلفهما حتى ارتميا بين ذراعي بعضهما، ليفرغا الشوق الذي يعتمل في داخلهما. وللحظة بدا وكأن الأسبوع الماضي لم يمر في حياتهما، بل كأن الأمور لا تزال على حالها.

تعانقا طويلاً، لكنها شعرت بالذنب حين تذكرت أنّ ليلي تكبّدت عناء تحضير العشاء لهما، وأنهما نسياه كلياً. رفعت رأسها لتلفت نظر جاستين إلى الموضوع فوجدته على بعد أميال منها. لم يكن البعد جسدياً بل ذهنياً، إذا بدا جامداً وكأنه تمثال.

ابتعد عنها وسار إلى النافذة حيث وقف وعيناه ثابتتان عليها، فهمست: «جاستين، ما الأمر؟ هل من مشكلة؟».

- لا أعلم. أشعر كأن غمامة سوداء تغطي حياتي. شعرت بها منذ بعض الوقت، لكن يبدو كأنها كامنة بانتظار هذه اللحظة... وكأن لا مفر منها.

- إذاً، أنت تشعر بشيء من الاكتئاب، وهذا طبيعي، فأنت متعب ولديك الكثير من المشاغل والمتاعب. إنها مسألة مؤقتة وستمرّ.

- ليتني أصدق هذا! لكن منذ التقيت أمي وأنا أنتظر ظهور المشاعر المناسبة. في الحفلة، نظرت من حولي ورأيت عائلتي كلها والملامح المشتركة بين العديد منا، فرحت أقول لنفسي: عدت إلى بيتي. هذه هي النهاية السعيدة حيث أكتشف أخيراً من أنا وإلى أين أنتمي. أتعرفين ما الذي حصل يا إيفي؟ لا شيء. أعدت هذا الكلام مراراً وتكراراً، منتظراً انبثاق السعادة التي ستجعل الأمور تستقيم. لكنني لم أشعر بشيء.

- هذا طبيعي يا عزيزي، فالوقت مبكر جداً. وحدها القصص الخرافية تحكي عن نهاية سعيدة فورية، فيما الأمر يتطلب وقتاً أطول في الواقع. أنت لم تعش هذه السنوات كلها في بوتقة. لقد أصبحت شخصاً...

- خشناً، مشككاً، عديم الشعور...

- لا تتكلم عن نفسك على هذا النحو. أنت لست عديم الشعور وأنا أدرى الناس بذلك. أنت تُجرح بسهولة، لذا حاولت أن تجعل من نفسك رجلاً عديم الشعور، لكنك لم تنجح في ذلك.

فسألها بهدوء: «ألا تظنين أنني أدرى بذلك منك؟».

- لا، لا أظن. أنت الرجل الذي أحب والذي سأبقى أحبه. أعلم أن الحياة لن تكون سهلة، لكنني سأطرد الشياطين التي تعذّبك مهما كانت.

- ليتني أؤمن بأنك قادرة على ذلك أو أنّ أيّ شخص آخر قادر على ذلك. ما كان عليّ أن أطلب منك مرافقتي إلى هنا. سامحيني أرجوك. عذري الوحيد هو أنني ما كنت لأحتمل فراقك. أردت أن أكون قريباً منك من جديد، وأن أتحدث إليك كما أفعل الآن، وأن أطلعك على ما أصبح واضحاً بالنسبة إليّ، على الرغم من أنني لا أريد أن أواجه الأمر ذلك والله أعلم بذلك.

سألته محاولة أن تكبت الشعور بالذعر المتعاظم في داخلها: «ماذا؟ ما الذي لا ترغب في مواجهته؟».

- أننا لا نستطيع أن نحب بعضنا، وأنّ من الأفضل أن نفترق الآن، فيما الفرصة لا تزال سانحة.

١١ - أرجوك.. تكلّم

على الرغم من صدمتها أدركت إيفي أنها لطالما استشعرت ذلك. فتحت السعادة في نابولي، كان الخطب كامناً. شعرت بذلك من دون أن تفهمه أو لعلها لم تشأ أن تفهم أو حتى أن تواجهه الآن. إنها حياتها وهي لن تستسلم من دون مقاومة. سألته بغضب: «من قال إننا لا نستطيع أن نحب بعضنا؟ أنت؟».

- ما أنا عليه يقول هذا، وما أنا عليه لا يمكن تغييره.

وابتسم ابتسامة ساخرة، غير مرحة قبل أن يضيف: «الغريب في الأمر هو أنك من جعلني أدرك ذلك».

- أنا؟ كيف؟ متى؟

- عندما عدت ذلك اليوم من نزهتك مع روجيرو، وحاولت أن أمنعك من الخروج معه مجدداً وقيادة دراجته النارية. طلبت مني ألاّ أصدر لك الأوامر أو أحاول السيطرة عليك. هل تتذكرين؟

- نعم. حينذاك ظهر على وجهك تعبير غريب... كما لو أني قلت كلاماً فظيعاً.

- فعلاً. قلت ما اعتادت مارغريت أن تقوله لي حين كنا متزوجين. كنت متملكاً وحاولت السيطرة عليها...

- لكنك لم تفعل هذا إلاّ لأنك كنت تخشى أن تفقدها بعد أن فقدت كل من أحببت. لا بدّ أنك تدرك ذلك؟

- نعم، طبعاً. أدركت ذلك يومها أيضاً. لكن إدراك أسباب تصرفاتك التي لا تحتمل لا يعني أنك قادرة على الامتناع عنها. أدركت أنني أدفعها بعيداً عني يوماً بعد يوم، لكنني لم أستطع أن أضع حداً لتصرفاتي تلك. لاحظت أنها

www.elromancia.com

بدأت تكرهني فازدادت تصرفاتي سوءاً. كلما ذوى حبها أكثر، كلما حاولت أن أنعشه بالقوة، لكنني فشلت طبعاً، فما من امرأة يمكن أن تحب وحشاً مستبداً لوقت طويل.

صرخت به: «لا تقل هذا عن نفسك».

- إنها الحقيقة. أعرف ما أنا عليه ولا يمكنني أن أتغيّر.

قالت بعناد: «يمكنك ذلك، لأنني معك الآن».

تقدّم ووقف بجانبها، فشعرت بدفئه وتنشقت عطره المثير حين وضع يديه حول وجهها وحملق فيها ثم همس: «هذا ما قلته لنفسي آلاف المرات، حين حاولت أن أصدّق أنه يحق لي أن أربطك بي. لكنني عرفت أن ذلك ليس عادلاً. ما إن بدأت أفكّر في مارغريت حتى رحت أتذكر أموراً أخرى، أحببتها في البداية لدرجة أخافتني، إلاّ أن هذا لم يمنعني من أن أتحوّل إلى... ما أصبحت عليه وما زلت عليه. دمرت مارغريت وأرسلتها إلى منيّتها، ولن أخاطر بك».

ردّت بمد يدها لتلامس خده، وقالت بعنف: «لا تكثر من الكلام. هذا ليس سوى كلام. أعرف أن ثمة مشاكل كثيرة، لكننا نستطيع التغلب عليها».

وفيما هي تتكلم أدركت أنها لن تتمكّن من إقناعه، فهي تملك قلبه لكن عقله يقاومها، ولن تتمكّن يوماً من كسبه إلى جانبها كلياً إذا لم يجتمعا معاً.

قالت بحماسة: «لا يمكنك أن تدمّرني، فأنا قوية».

- نعم، قوية بما يكفي لمواجهتي، ومواجهتي بأقوى الأسلحة لأنك تعرفين ما لا يمكنني مقاومته. لكن، هل هذا هو الحب الذي نريده؟ لقد قاومتني مارغريت، وفي النهاية لم نعد نفعل شيئاً سوى أن نتشاجر، وأظن...

وارتجف صوته وكأن الكلمات التالية تمزّقه إرباً: «... أظن أنني كنت أحاول في الواقع أن أدفعها بعيداً عني».

- لكن لماذا؟

- لأنّ هذا ما تعلّمت أن أفعله منذ زمن بعيد. فالألم يصبح أخف إن كنت أنا من يرفض الآخر وينبذه. أخبرتك أنني جبان في الصميم، فتقبّلي هذا

الواقع.

- لن أتقبله لأنه ليس صحيحاً. الجبان لا يقوم بالرحلة التي قمت بها لتعثر على أمك.

- لكنها كانت رحلتك التي قمت بها لأنك دفعتني إلى ذلك.. لولاك لحبست نفسي في قفصي الفولاذي. دعيني أخبرك عن هذا القفص لأن عليك أن تعرفي عنه وأن تخشيه. كنت أعيش فيه حين التقينا. إنه مكان ضيق وصغير كي أتمكّن من حماية كل إنش منه. ولهذا المكان نافذتان مسدودتان، وهما صغيرتان أيضاً فبهذه الطريقة يمكن إبقاء العالم الخارجي بعيداً بسهولة أكبر.

صرخت بصوت معذب وهي تضع يديها على أذنيها: «توقّف!».

لكنه أبعد يديها، وأمسك معصميها بقوة، مضيفاً بقسوة: «عليك أن تعرفي! عليك أن تفهمي ما سأقدم عليه!».

- لا أريد سماع المزيد عن هذا القفص، فقد فتحنا بابه ودمرناه.

- هذا ما ظننته في الماضي. ليتك تعلمين كم أملت ذلك لأنك الوحيدة القادرة على تدميره إذا ما قُدّر لأحد أن يفعلها. لكنك لا تستطيعين. لا، ولا حتى أنت.

- لا أصدّق أنك تتخلى عما يجمعنا بهذه السهولة.

- لأنك لا تعرفينني على حقيقتي، ولا تعرفين الظلمة التي لا أستطيع التخلص منها في داخلي، ولا حتى الآن. لذا، عليّ أن أتخذ القرار بالنيابة عنّا نحن الاثنين، إنما لا تظني أنّ المسألة سهلة.

ونظر إليها بعينين تائهتين قبل أن يردف: «سامحيني يا إيفي، حاولي أن تسامحيني».

ردّت عليه بحدّة: «لن أسامحك. لقد منحنا الله هدية ثمينة، وها أنت ترميها».

- لأنّ الرجل الذي أنا عليه لا يمكن أن يفعل سوى ذلك. ألا ترين؟ هذا هو القفص، ولهذا السبب لن يُحطم يوماً. عليّ أن أعيش فيه، فلا خيار آخر

أمامي. لكنني لن أسجنك فيه معي.

- وماذا عن مارك؟

- لقد وجد مارك ما يحتاجه مع أسرته الجديدة، وأنت السبب في سعادته الحالية. سأبقى ممتناً لك دوماً.

ثارت ثائرتها لشعورها بالعجز: «لا تحاول أن تقول لي إنك عديم الشعور، فأنا أعرفك».

- هذا ما تظنينه.

- أتظن أن المرأة لا تعرف إذا كان الرجل يحبها؟ لقد رأيت الشوق عينيك، وسمعتك تهمس اسمي. لا يمكنك أن تلغي تلك اللحظات أو تدّعي أننا لم نعشها، إذ كانت رائعة.

فقال بصوت أجش: «كانت لحظات سارة وما من أحد يمكنه أن ينكر ذلك، إنما دعينا من الانفعال والمواقف العاطفية».

- توقّف عن محاولات إخافتي.

- إذا لم تكوني خائفة، فمن الأفضل أن تفعلي. ابتعدي عني يا إيفي، فأنا أسبب الألم لكل من ألمسه، ولا يمكنني الحؤول دون ذلك. ليتني التقيتك منذ سنوات، لكن الأوان فات بالنسبة إلي. ألا يمكنك أن تفهمي هذا؟

- لا، ولن أصدق هذا أيضاً.

- ما الذي لا تستطيعين تصديقه؟ أنني أستطيع أن أخطط لهجرك فيما أنا أفعل هذا؟

وجرّها نحوه بقوة وسحقها بين ذراعيه في أعنف عناق، فبادلته العناق من دون تردد يدفعها إلى ذلك يأس يوازي يأسه. على غراره كان لديها ما تريد إثباته، وحاولت أن تفعل ذلك بملاقاته في منتصف الطريق. استسلمت للمشاعر الجارفة التي اكتسحتها، متخلية عن كافة الأفكار التي شغلت ذهنها. لعل هذه هي فرصتها الأخيرة لتكسب المعركة.

شعرت بنفسها تدنو من النصر تدريجياً، ولم يعد يفصلها عنه سوى القليل، إلاّ أنها وفي اللحظة الأخيرة رأته يفلت من بين يديها، حين سلخ نفسه عنها

وعيناه مغرورقتان بالدموع. عندئذ، رفعت ناظريها إليه وبكيا معاً.

راحت إيفي تقنع نفسها بأنها عاشت هذه التجربة من قبل. علاقة بدت واعدة وانتهت، وها هي حرّة من جديد. ستشعر بشيء من الحزن إنما بالارتياح أيضاً لتمكّنها من الفرار. لكن لم تكن هذه حالها.

في الماضي، كانت هي من يقطع العلاقة خوفاً على حريتها. أما هذه المرة فقد شعرت وكأنها رُميت في هوة سحيقة.

لقد أحبت جاستين بقوة لم تعرفها قط من قبل، ومنحته قلبها وروحها بشكل كلي أدهشها هي نفسها. أصبح حبه والبقاء معه أهم من أيّ أمر آخر في الحياة، حتى الحرية نفسها. أحياناً، كانت تجاهد كي تكرهه فتذكّر نفسها بكلماته القاسية، وتقول لنفسها إنه عنى كل كلمة تلفظ بها. ولو بذلت جهداً أكبر لصدّقت هذا تقريباً. وفي أحيان أخرى، كانت تراودها قناعة بأنه أجبر نفسه على قول ما يدفعها إلى الرحيل، ليس من أجله بل من أجلها. هذه القناعة كانت تزيد من ألمها، إذ تعني أنه اختار أن يعود إلى سجنه حيث لا تشرق الشمس وحيث لا يمكن لحبها أن يصل إليه، وقد فعل هذا من أجلها.

قبل أن ترحل عن بيته، أعادت له عقد الماس والقرطين، هدية هوب، قائلة: «أرادت أن تقدّمها لكنّتها. لذا، لا يمكنني أن أحتفظ بها».

رحلت قبل عودة مارك، فأرسل لها الفتى العديد من الرسائل الإلكترونية يسألها فيها متى ستعود، رافضاً الاقتناع بأنّ كل شيء انتهى. وهذا طبيعي، فهي نفسها لا تصدّق هذا.

راح يراسلها بانتظام عبر البريد الإلكتروني. وكان في بعض الأحيان يضيف بعض الأخبار عن أبيه الذي يغرق نفسه على ما يبدو بالعمل. ولم تكن رسائله تتضمن أيّ إشارة شخصية، باستثناء حين يضيف أحياناً: والدي يرسل لك تحياته.

كتبت لهوب تشكرها على استقبالها وعلى المجوهرات التي قدّمتها لها: «لا يمكنني الاحتفاظ بها. لكن سيسعدني دوماً أن أتذكّرها».

وردّت هوب بغضب واستياء: «لقد فقدتما رشديكما. أنا لا أريد

المجوهرات بل أريد كنّتي التي أحببت. أريد زواجاً والمزيد من الأحفاد. سأحتفظ بالمجوهرات حتى تعودا إلى رشدكما».

أصبح الطقس أكثر برودة. وكتب لها مارك ليعلمها أنه ووالده سيقضيان عيد الميلاد في نابولي. أما هي فقد أمضت فترة الأعياد محبوسة في شقتها، تعمل حتى يضنيها التعب وتتذكر الكلمات التي تلفّظت بها ديبرا يوماً: «آمل أن تعلقي في شباك الحب ذات يوم، وتغرمي برجل لا يمكنك الحصول عليه، فهذا سيشكل تجربة جديدة بالنسبة إليك».

حينذاك، كانت صديقتها تمازحها، لكن الأمر لم يعد مسلياً الآن. وعندما قُرع جرس بيتها يوم جمعة بارد، لم تعرف إيفي من تتوقع.

- مارك!

- هل أستطيع الدخول؟

- بالطبع.

تنحّت جانباً ودعته للدخول بعد أن ألقت نظرة على الممر في الخارج، لكنها لم ترَ أيّ أثر لحاستين، فكبحت الأمل الذي دغدغ حواسها للحظات.

كم يكبر الأطفال بسرعة! فقد تغيّر مارك، حتى في ستة أشهر، إذ بدأت ملامح الرجولة ترتسم على وجهه. كما أن قامته أصبحت أطول كما أدركت وهي تحتضنه بين ذراعيها.

فكرّت بطرح ملايين الأسئلة عليه... عنه وعن والده وعن حياتهما معاً، لكنها لجمت لسانها حتى استقر في مطبخها وبدأ بتناول وجبة خفيفة حضّرتها على عجل.

قالت: «يسرني أن أرى أن شهيتك لا تزال جيدة. هل ترغب في قطعة أخرى من فطيرة التفاح؟».

أومأ برأسه إيجاباً فيما لا يزال فمه مليئاً بالطعام، فملأت صحنه مجدداً.

سألته: «كيف عرفت عنواني؟».

- كتبته على الطرد حين أعدت لي ذات مرة قرص تخزين المعلومات.

قالت: «حسناً أخبرني. ما هي أخبارك؟ كيف كان عيد الميلاد؟».

- رائع. جدتي لطيفة جداً. ليتك كنت معنا.. تمنيت هذا طيلة الوقت. بقيت أتخيّل أنك ستصلين فجأة، لكنك لم تفعلي.

- مارك، عزيزي، هذا غير ممكن. فأنا وأبوك لم نعد معاً.

- لكن يمكنكما أن تكونا معاً.

- لا، لن ينجح هذا أبداً. لقد خرجت من حياته الآن وإلى الأبد.

فقال بعناد: «لكنني لا أريدك أن تخرجي من حياتي. لهذا، أنا هنا. أريدك أن تحضري الجنازة».

- جنازة من؟

- جنازة أمي. لقد أعادها إلى الوطن. ذات يوم، راح يحدّثني عن أمي وعن شعوري حيال دفنها في سويسرا، فقلت له إنني أرغب في أن تكون هنا لذا قام بالترتيبات اللازمة لإعادة رفاتها ودفنها في المقبرة التي أريته إياها.

قالت إيفي: «هذا رائع. هذا ما أردته، أليس كذلك؟».

هزّ رأسه والتمعت عيناه: «لطالما رغبت في أن تُدفن هنا، لكنه كان يعتقد أنّ الأمر غير مهم ولم أستطع أن أشرح له وجهة نظري. إلاّ أنّه تغيّر الآن يا إيفي، وبدأ يفهم أموراً لم يكن يتفهّمها من قبل».

بقيت صامتة، وهي تشعر بوهج في داخلها، وهج ظنت أنها لن تعرفه مجدداً. بدا ذلك أشبه بالسعادة، إذ علمت أنها مسؤولة عما يحدث. ظنت أنّ حبهما تحوّل إلى شيء عقيم، إلا أن معرفتها بأن تعامله مع ابنه قد تحسّن يعني أنّ حبهما أعطى ثماراً جيدة. إنه يفهم ما لم يكن يتفهّمه من قبل! يمكنها أن تحتفظ بهذه الكلمات ككنز خاص بها.

قال مارك: «ستقيم الجنازة بعد غد، فهل ستأتين؟».

أطلقت نفساً لاهثاً: «لا أستطيع يا مارك. لا يمكنني ذلك».

- لكن عليك ذلك، فالفضل يعود لك. أليس كذلك؟

- لعلني تحدّثت معه في هذا الموضوع ذات مرة، لكن... لا، القرار قراره هو.

- أنت قادرة على إقناعه، فهو يستمع إليك، رغم أنه يدّعي العكس.

حاولت أن تنكر ذلك، لكنها وجدت صعوبة في ذلك فيما هو يقول ما كانت تتوق إلى سماعه.

قالت: «على أيّ حال، لا بدّ أن أسرة والدتك ستحضر، ولعلهم لن يرغبوا في وجودي هناك».

- لم يكن لديها أحد. سيقتصر الحضور عليّ وعلى أبي... وعليك.

صدمتها رغبته الشديدة في أن توافق، لمجرد أن ترى جاستين مجدداً وتتحدّث إليه وتتأمل وجهه. فهذا كله سيكون رائعاً ومرعباً.

وفاجأها مارك مجدداً حين قال: «ما زال يحتفظ بصورتك».

- أيّ صورة؟

- إحدى الصورتين اللتين التقطتهما لك ليلة جئت معنا إلى المنزل. قطع أبي الجزء العلوي الذي يظهر رأسك وطبعه.

- هل رأيته يفعل هذا؟

ابتسم لسذاجتها ثم قال: «بالطبع لا. لكنه نسي أن يمحوها عن جهاز الكمبيوتر. لذا، تحققت من محفظته ووجدتها فيها الأسبوع الماضي».

- مارك، ما كان عليك أن تفتح محفظة والدك.

فقال ببراءة: «كان عليّ أن أفعل. أنّى لي أن أكتشف الحقيقة إن لم أتحقق من الوقائع؟».

قالت وهي تضحك وتبكي في آن: «لا تحاول أن تخدعني وتبهرني بالعلم أيها الصبي».

من الجنون أن تشعر فجأة بكل هذه السعادة. لقد احتفظ بصورتها، كما أنه استمع إليها وهذا أفضل. ما زالت حياتاهما متداخلتين، حتى وإن لم يلتقيا مجدداً.

- مارك، هل أخبرته أنك قادم إلى هنا؟

هزّ الفتى رأسه. وقبل أن يتمكّن من الكلام، رنّ هاتفه الخلوي.

- مرحباً أبي. أنا بخير. لم أختفِ، بل جئت لرؤية إيفي. أبي؟ هل تسمعني؟ أنا في شقة إيفي. أخبرتها عن أمي وطلبت منها حضور الجنازة، لكنها تقول إنها

لا تستطيع ذلك.

قالت إيفي وهي تمد يدها لأخذ الهاتف: «دعني أكلّمه. جاستين؟».

- نعم.

لم يجب على الفور، لكن حتى هذه الكلمة الوحيدة، الصغيرة والمشوّهة استطاعت أن تحرّك مشاعرها.

- أريدك أن تعلم وحسب أنّ مارك بأمان. سيتوجّه إلى المنزل بعد دقائق، فلا تقلق أرجوك.

- لن أقلق إن كان معك، لكنني آسف لأنه أزعجك.

- ما من إزعاج أبداً. جاستين... أنا مسرورة... بالنسبة إلى والدته...

- هذا ما أراده بشدة. كان عليّ أن أرى هذا منذ البدء. قال إنه أطلعك على فكرته.

- أتعني حضور الجنازة؟ نعم، لكن هذا لا يبدو لي مناسباً.

وصمتت، بالكاد تجرؤ على التفكير في ما قد يأتي لاحقاً. عندئذ قال: «إنه يريدك فعلاً أن تحضري، لكنني سأتفهّم موقفك إذا ما... لم أكن أتوقّع فعلاً منك...».

- سأحضر طبعاً. ظننت فقط.. أنك لن ترغب في أن تراني هناك.

وساد الصمت. وتمنت إيفي لو تعرف ما يخبئه في هذا الصمت المطبق. وأخيراً قال: «مارك يفتقدك. أعتقد أن حضورك سيعني له الكثير».

راحت ترجوه في سرّها: قل إنك تفتقدني أيضاً. وعاد الصمت ليخيّم من جديد.

- سآتي إذاً.

- سأرسل سائقي ليحضره من منزلك. أشكرك على اهتمامك به اليوم. تصبحين على خير.

قالت محاولة أن تقلّد نبرته الرسمية، رغم أنّ اضطرارهما لاستخدام هذه الطريقة المهذبة وكأنهما غريبان آلمها: «تصبح على خير».

قال مارك الذي استمع إلى حديثهما: «أستأتين؟ هذا رائع».

- نعم، سأحضر.

- هل بدا والدي غاضباً؟

- لا، لم يكن غاضباً بل... لا شيء أبداً.

أدركت أن هذه هي الطريقة الوحيدة لوصف الإحساس بالفراغ الذي وصلها عبر الهاتف. لكن الهواتف تجعل الأمور تبدو مختلفة. ستتحسّن الأمور حين تراه.

قالت بمرح: «لمَ لا تخبرني المزيد عن عيد الميلاد فيما نحن ننتظر؟ هل وجدته هادئاً بعض الشيء لأنّ الإيطاليين لا يحتفلون فعلياً بعيد الميلاد، بل ينتظرون عيد الغطاس في السادس من كانون الثاني».

- نعم، لكن جدتي قالت بما أنني إنكليزي فيجب أن أحصل على هدايا في عيد الميلاد كالعادة. بعدئذ، وعندما حلّ عيد الغطاس، قالت إنني سأحصل على مزيد من الهدايا لأنّ هذا هو حال الجميع. حاولت أن أخبرها أنني لا أتوقع الحصول على هدايا مرتين، إلاّ أنها قالت إن عليّ أن أتقبّل هذا.

فقالت إيفي متأملة وهي تتخيل المشهد: «يمكنني سماع هوب تقول هذا».

- كما تعلّمت الكثير من الكلمات النابوليتانية، وقد حفظتها من أجلك.

راحا يتسامران حتى تعالى قرع الجرس معلناً وصول سائق جاستين الذي قال إنه سيحضر ليقلّها إلى الجنازة بعد يومين، ثم يعيدها إلى المنزل.

بعد رحيل مارك، غاصت في عملها وحاولت أن تركز في تفكيرها عليه وحده، إلاّ أن الصفحات أخذت تمر أمام ناظريها من دون أن تترك عليها أيّ أثر. في النهاية، ركبت دراجتها النارية وجالت بها بسرعة قصوى لساعات حتى لم تعد تعرف المكان الذي وصلت إليه. وهذ ينطبق أيضاً على حياتها كلها.

للمرة الأولى، لم تنجح السرعة في إراحتها، وأدركت الآن أنها تهرب من إحساس سيبقى دوماً كامناً في انتظارها.

مع حلول موعد الجنازة، اختارت بذلة كحلية اللون، وتحققت من مظهرها

مراراً وتكراراً. حاولت أن تبقى هادئة، لأنها تعلم أنها ستقابل جاستين مجدداً ولأول مرة منذ أشهر. ستنظر إليه نظرة مختلفة الآن، لأنها تعرف أنه احتفظ بصورتها معه.

لن تسمح لنفسها بالتفكير في ما يمكن أن يحدث، فهذا سيقودها إلى الجنون. لكن، وعلى الرغم من تصميمها على الالتزام بقرارها هذا، دغدغت آمالها فكرة رؤيته من جديد بعد وحشة الأشهر الطويلة، وتأمل وجهه، والطريقة التي يبتسم بها لها، كما تسارّعت دقات قلبها.

أخيراً، لاحت أمامها المقبرة فأعاد عقلها على الفور بث شريط زيارتها الأخيرة إلى هذا المكان، في بداية فصل الصيف، حين كانت الأوراق خضراء والشمس مشعّة في كبد السماء. أما الآن، فقد حلّ الشتاء حاملاً معه البرد والرطوبة والتعاسة. لاقاها مارك عند باب الكنيسة وأمسك بيدها قبل أن يهمس: «شكراً لك. نحن جاهزون».

أدهشها الفراغ في الداخل، فقد اقتصر الحضور على مارك ووالده، ولم يظهر أيّ أثر لأيّ شخص من عائلة الفقيدة. كان جاستين يقف في الصف الأمامي مديراً ظهره للباب، لكنه التفت مع اقترابها. وللوهلة الأولى، لم ترَ فيه الرجل الذي أحبّت.

بدا أكبر سناً وأكثر نحولاً، إلاّ أنّ هذا لم يكن أسوأ ما في مظهره، فقد ظهرت على وجهه تلك النظرة القاسية، الذابلة التي لطالما خشيت أن تراها. ألقت عليه التحية بنعومة: «مرحباً».

لم يأتِ بأيّ رد فعل فوري، بل بقي صامتاً للحظة وكأنه لا يعلم أين هو. بعدئذ، أحنى رأسه قليلاً نحوها وقال بنبرة مؤدّبة: «شكراً على حضورك، فهو مهم لمارك».

- يسرني أن يرغب في حضوري.

ظهر الكاهن سائلاً إن كانوا جاهزين لبدء المراسم، فأومأ جاستين إيجاباً، والتفت إلى مارك الذي تقدّم ليقف بجانبه وهو يمسك بيد إيفي بحيث أصبحت تقف إلى جانبه الآخر.

كانت الطقوس مختصرة، وأبقى جاستين عينيه على التابوت المغطى بالورود. وفيما هي تراقبه، تذكرت إيفي ما أخبرها به عن مارغريت، وكم أحبّها، وكيف تحول هذا كله إلى كراهية.

ما الذي يفكّر فيه الآن؟ هل عادت مارغريت لتحتل قلبه مجدداً في هذه اللحظة؟ هل من مكان لها فيه؟

بعدئذٍ خرجوا إلى حيث حُفر القبر، فاستطاعت أن ترى بوضوح الورود الموضوعة على التابوت. باقتان من الورد، إحداهما تحمل بطاقة كتب عليها مارك بخط يده الطفولي: «إلى أمي مع حبي دائماً».

والأخرى حملت بطاقة من جاستين كتب عليها عبارة بسيطة: «شكراً لك».

عندما انتهت مراسم الدفن، ضغط مارك على يدها، كأنه يقول إن كل شيء على ما يرام الآن. نظرت إليه إيفي، وقد أثّرت فيها طريقته في التواصل معها، حتى في مثل هذه اللحظة.

كان وجه جاستين جامداً كالصخرة. تساءلت إيفي كيف يمكنها أن تكون معه هنا، وقلبها ينبض له وكأن الفراق المرّ لم يحدث أبداً؟ بعد أن انتهت الطقوس كلها، رأته ينظر إليها فتقدّمت لتقف أمامه، تتحداه ألاّ يواجهها.

سألته: «هل أنت سعيد حقاً لأنني أتيت، وليس من أجل مارك فقط؟».

لم يجب على الفور وسرت في جسمها قشعريرة. وأخيراً، قال: «نعم، أنا مسرور حقاً لأنني رأيتك. فلطالما تساءلت كيف تسير الأمور معك».

- وأنا تساءلت كثيراً عنك. إن كنت بخير، وكيف تعاملك الحياة.

- لا بأس، كما يمكنك أن ترى.

لا، لا يمكنني أن أرى ذلك. جلّ ما أراه هو أن وجهك متوتر، مرهق وكئيب كحاله حين التقينا للمرة الأولى!

- هل تزور عائلتك غالباً؟

- لدينا دعوة مفتوحة إلى نابولي. يمكن لمارك أن يذهب أكثر مني، لكن الأمور تسير على ما يرام بيني وبين هوب.

قالت له بحزم: «يسرّني هذا».

- أنت سبب هذا كله ولن أنسى لك هذا الفضل أبداً.

- لا، في النهاية، لم أستطع أن أفعل شيئاً من أجلك يا حبي!

أردف يسألها بصوت يائس: «ماذا عنك؟ هل زرت إيطاليا ثانية؟».

- لم تسنح لي الفرصة، فقد كنت مشغولة جداً بالعمل.

- حسناً... ! يسرّني أن تكون حياتك المهنية على خير ما يرام.

- نعم، إنها جيدة جداً، شكراً لك.

إني أتلقف أي عمل يقع تحت يدي لأملأ به ساعات حياتي!

لقد خدعت نفسها بآمال كاذبة عقدتها على هذا اللقاء. لم يكن يرغب في رؤيتها، وها هو الآن يجاهد ليجد ما يقوله. قال: «سيعيدك السائق إلى المنزل عندما ترغبين. أرجو ألا نكون قد أخذنا الكثير من وقتك الثمين».

شعرت بغصة في حلقها. لقد تعلّقت بأمل أن يلتقيا مجدداً حتى في أسوأ الأوقات، إلاّ أن هذا اللقاء حصل، وأدركت الآن أنّ هذه اللحظة هي نهاية الطريق بالنسبة إليهما.

وأخيراً استطاعت أن تتكلم، نطقت بكلمات رسمية وبشعة بقدر كلماته. فقالت بحدة: «حسناً! حان الوقت كي أرحل. سرّني أن أراك مجدداً. أتمنى لك وافر الحظ».

أخذ نفساً حاداً وبدا الألم الحاد على وجهه للحظة، ثم قال بصوت أجش: «إيفي، هل أنت بخير؟».

- لا. وأنت؟

هزّ رأسه، لكنه لم يتراجع. همس: «الوداع».

لمست خده بلطف قائلة: «الوداع يا حبي. الوداع».

١٢ - لا عودة إلى الوراء

بدأت إيفي تفقد إحساسها بالزمن، وراح اليوم يلي الآخر مع فارق بسيط بينهما. كان يخيّل إليها أحياناً كأنها تترجم الكتاب نفسه إلى الأبد.

كانت تجلس أمام جهاز الكمبيوتر لساعات لترتمي في سريرها في اللحظة الأخيرة وتفيق مع طلوع الفجر فتشرب القهوة قبل أن تجبر نفسها على الاستيقاظ بحمام بارد. وبعدئذ، تعود إلى العمل. لا تفكّري! لا تستمعي إلى الهاتف الذي لا يرن أبداً! لا تتساءلي كيف ستتحملين هذا كله لما تبقى من حياتك!

بقي مارك يراسلها. فيعلمها كم من مرّة سافر إلى نابولي، وكم كان جاستين يتركه غالباً مع جدته فيما يسافر هو بحجة العمل. شعرت أنه يدفن نفسه في العمل، ليتجنب التفكير والشعور مثلما تفعل هي.

حرصت على أن تكتب رسائلها بعناية، في حال قرأها جاستين. لم تحتمل فكرة أن يكتشف كم تتألم من أجله في حين أنه دمّر حبهما عمداً، علماً أنّ مارك اعتاد أن ينهي كل رسالة بملاحظة آملة: أبي لا يواعد أحداً.

عندما حلّ فصل الربيع، انتقلت إلى منزلها الواقع على الشاطىء. تجنّبت ذلك لفترة، مستخدمة الطقس البارد كعذر وحجة. لكنها في الحقيقة لم تكن تحتمل فكرة العودة إلى ذاك المكان حيث أمضت أياماً سعيدة مع جاستين وتعلّمت أن تحبّه.

بدا المنزل بارداً وفارغاً أكثر حتى مما تصوّرت. ها هو المطبخ الصغير حيث حضّر الطعام، وها هي الأريكة حيث استيقظت لتجده راكعاً قربها، يتأملها باهتمام حنون.

ردد البلاط صدى وقع قدميها، عندما صعدت السلالم إلى غرفة النوم الصامتة والفارغة. تساءلت كيف ستتحمل الإقامة هنا مجدداً، لكنها عادت وأدركت أنها لن تحتمل الرحيل عن هذا المكان، فهذا هو المكان الذي اكتشفا فيه الحب وسيبقى معها إلى الأبد.

بدأت تمارس السباحة بانتظام. كانت المياه لا تزال باردة لكنها وجدتها مريحة، فراحت تسبح مسافات طويلة بحيث تنهكها رحلة العودة إلى الشاطىء فتتمكن من النوم لشدة إرهاقها.

في صباح أحد الأيام، خرجت باكراً وسبحت مسافة أطول من المعتاد. وأخيراً، أدركت أنّ من الحكمة أن تعود أدراجها. بدأت رحلة العودة ببطء، وراحت تشعر بقواها تخور تدريجياً فيما الشاطىء يبتعد أكثر وأكثر بدلاً من أن يصبح أقرب. أحست بثقل ذراعيها وساقيها وبدا لها كأنها لا تتقدّم.

وتشوّش ذهنها. من السهل أن تستسلم للنوم الآن.

- إيفي... ي!

جاء الصوت من السماء، ومن البحر، ومن الهواء. أحاط بها من كل ناحية.

- إيفي... ي!

تقلّص الصوت ليتركّز في نقطة على الشاطىء. امرأة طويلة أنيقة وقفت هناك، وراحت تناديها وتلوّح لها.

إنها هوب!

طرفت إيفي بعينيها، محاولة أن تدرك أن المستحيل يحصل. لم تعرف كيف استطاعت أن تبعث الحياة مجدداً في أطرافها، وبدأت تشق طريقها عبر المياه متجهة إلى الشاطىء.

عندما وصلت إلى المياه الضحلة، ووقفت على قدميها، تعثّرت، واكتشفت كم هي منهكة. تقدّمت هوب منها من دون تردد، غافلة عن الضرر الذي لحق بملابسها الأنيقة. وحين وصلت إليها، رفعت ذراعها ووضعتها على كتفيها وأسندتها حتى وصلتا إلى شاطىء الأمان.

هناك، لم تستطع إيفي سوى أن تنهار على الرمال، ورفعت رأسها نحو هوب التي انحنت فوقها قائلة بنبرة تنمّ عن فراغ صبرها: «بصراحة، أنت مزعجة وكريهة مثله تماماً!».

في وقت لاحق، وفي دفء المنزل، وبعد أن استحمت إيفي وارتدت ملابسها، قالت هوب بحزم: «اجلسي وتناولي بعض الطعام».

وكانت هوب التي ارتدت عباءة إيفي بانتظار أن تجفّ ملابسها، قد استولت على المطبخ وأعدّت وجبة لذيذة مما وجدته. تناولت إيفي الطعام بتلذذ واستمتاع، وأدركت أنّ اليد التي أعدّته نابغة في الطبخ.

سألتها هوب وهي تجلس إلى الطاولة وتسكب لنفسها فنجاناً من الشاي: «هل أنت غاضبة لأني جئت؟».

- لا.. طبعاً. يسرّني أن أراك. لكنني ظننتك في إيطاليا مع مارك.

- حفيدي لا يحتاج إليّ حالياً، فالأسرة كلها تدلله. جئت إلى إنكلترا لرؤية ابني، فهو من يحتاجني الآن.. وأنت أيضاً.

ضحكت إيفي ضحكة قصيرة: «آه! إنني أتدبّر أموري».

سألتها هوب وهي تتأملها بعين منتقدة: «أحقاً؟ لم يكن هذا ما رأيته هناك في الخارج».

- كنت متعبة وحسب، حاولت أن أستجمع قواي قبل أن أسبح مجدداً.

- ربما! لكن شيئاً ما في داخلي يقول لي إن أفكاراً خطرة راودتك.

أمام نظرة هوب الثاقبة، لم تجد إيفي قدرة على الإنكار: «حسناً! إذا خطرت لي هذه الأفكار، فهي لم تستمر سوى لحظات قبل أن أستعيد رشدي».

- طبعاً، فأنت امرأة. نحن نتمكن دوماً من التماسك بطريقة ما. لكن هم...

وهزّت كتفيها، مزدرية عالم الرجال كله.

أخيراً، سألتها هوب: «هل تنامين؟».

فاعترفت إيفي: «عندما أضطر إلى ذلك فقط. أما في ما تبقّى من الوقت...».

وهزّت كتفيها، فقالت هوب: «هناك العمل دوماً. الوضع كما تصوّرته. لكنك تواجهينه أفضل منه».

سألتها إيفي بلهفة: «هل رأيته؟ كيف حاله؟».

- كنت معه بالأمس. إنه مثلك، يعمل بكد وإلى وقت متأخر من الليل. هاتفه لا يتوقف عن الرنين فيما يصدر أوامره ذات اليمين وذات اليسار.

وتنهدت قبل أن تردف: «الوضع مريع!».

- كل منّا يحاول أن يكافح على طريقته الخاصة.

فقالت هوب على الفور: «لكنه لا يكافح. إنه يظن ذلك، لكنه في الواقع يذوي. القوقعة الخارجية لا تزال على حالها، لكنه يتفتت ويتحوّل إلى غبار من الداخل».

همست إيفي: «أرجوك! أرجوك لا تقولي المزيد».

- عليّ أن أفعل. وإلاّ كيف يمكنني أن أساعد ابني؟ إيفي، جئت أقول لك إنّ عليك أن تعودي إلى حياته. عليك ذلك وإلاّ فسينتهي أمره.

- لكني لم أتركه يا هوب، بل هو من أبعدني عنه. هذا ما يريده هو.

- لا تكوني سخيفة! هذا ليس ما أراده. هذا ما شعر أنّ عليه أن يفعله من أجل مصلحتك. هذه فكرته عن التصرّف كرجل قويّ، لكنه مخطىء تماماً. إنه يحتاج إليك، فهو لا يستطيع أن يعيش من دونك.

- لكنه يظن أنه قادر على ذلك.

- عليك إذن أن تثبتي له أنه مخطىء. عليك أن تعودي إليه، سواء شاء ذلك أم أبى. إذا ما اعترض فتجاهليه. عودي إلى منزله وارفضي التزحزح. إيفي، أتوسّل إليك أن تستمعي إليّ. أنت فرصته الأخيرة. لم أتمكن من مساعدة ابني من قبل، لكن عليّ أن أفعل الآن.

قالت إيفي بيأس: «لا أستطيع. وهذا لا يعني أنني لا أريد. بل أريد ذلك بشدة وأحلم به ليلاً ونهاراً، وفي كل دقيقة. ليتك تعلمين...».

سألتها هوب ساخرة: «أتظنين أنني لا أعرف هذا التوق؟».

قالت: «نعم، أفترض أنك تعرفين».

تنهّدت ولاذت بالصمت. وضعت إيفي يدها فوق يد المرأة المسنّة وشدّت عليها. وبقيا على هذه الحال للحظات.

وعادت هوب تقول: «عندما جئتما إلى نابولي السنة الماضية، غمرتني السعادة. كنت أتطلع إلى التحدث إلى ابني حيث نتحد كأم وابنها. لكن...».

وتنهّدت ثم هزت كتفيها بحركة تعكس يأسها وعجزها.

سألتها إيفي: «ألم تخبريه كل شيء؟».

- بلى، لكن الطفل الذي حلمت به لم يكن موجوداً طبعاً، بل وجدت رجلاً حوّل نفسه إلى فولاذ كي يحتمل ما فعلته به الحياة. كيف يمكنني أن أطلعه على أفكاري ومشاعري؟ هذا سيحرجه وحسب. أمضينا معاً ساعات طويلة حيث تحدّثنا في مواضيع غير ذات أهمية. في النهاية، بقي قلبانا مقفلين، وأظن الآن أن قلبه سيبقى مغلقاً، ولن يفتحه إلاّ لابنه ولك. إنه لا يشعر أنني أمه. إنه يعلم هذا، لكنها كلمة لا معنى لها لأنه لم يلقَ مني أيّ حب أو رعاية. ولهذا السبب، يدعوني دوماً باسمي ولا يناديني أمي أبداً.

- نعم، خطر لي هذا من قبل.

- أنا أحاول الآن أن أفعل الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله من أجله. أخبرني كيف أجبرك على الرحيل، وعن سبب تصرفه هذا، وهو نحق من نواحٍ عدة. إنه رجل كئيب من الداخل ولا يمكن لأيّ امرأة أن تتعامل معه. لكني أؤمن بأنك قادرة على هذا، لذا أرجوك أن تعودي إليه وتمنحيه فرصة جديدة.

- لكن يا هوب...!

أمسكت المرأة الأكبر سناً يديها الاثنتين وتكلّمت بضراوة: «لم أكن امرأة جيدة يا إيفي. كنت قاسية وأنانية، وتسببت بالألم للكثيرين. إنني أحاول أن أصلح ما أفسدته، إنما ثمة أمور لا يمكن تصحيحها أبداً. لقد تعلمت الكثير عن الرجال... ربما أكثر مما ينبغي. بعض الرجال خُلقوا ليكونوا أزواجاً والبعض الآخر ليكونوا عشاقاً، وقد عرفت النوعين وأحببت النوعين. يمكن للمرأة الذكية والحكيمة أن تميّز الفرق...».

وابتسمت ابتسامة حزينة قبل أن تضيف: «لكني لم أكن حكيمة دوماً».

- أظنك أكثر النساء اللواتي عرفتهن حكمة.

- إذا صح ذلك فقد اكتسبتها من دروس قاسية ومؤلمة. أخبرتك أني عرفت الشوق الذي تشعرين به... نحو رجل واحد، لأنه الوحيد المناسب. أعلم متى ينبغي أن تهربي من هذه المشاعر لأنها ستدمرك، وأعلم متى ينبغي الاستماع إليها، وأقول لك هذه المرة يجب أن تصغي وإلاّ فلن تشعري أنك حرّة يوماً.

- كيف يمكنني أن أعود إليه رغم إرادته؟ لعله كان يبحث سراً عن منفذ له.

- لن تقولي هذا إذا ما رأيته الآن. إذا فقدتما بعضكما البعض نهائياً فسوف تنجين، لكنني واثقة من أنه لن يفعل. إنه قويّ على طريقته، لكنها ليست الطريقة الصحيحة لمساعدته الآن. أنت مرتبطة بالحياة بطريقة لا تنطبق عليه.

- ليتني أعرف ما ينبغي عليّ فعله.

- استمعي إلى قلبك. سيخبرك كل ما تحتاجين إلى معرفته. لن يكون الأمر سهلاً عليك. سيبقى دوماً رجلاً مضطرباً، لكنه يحتاجك إلى حدّ اليأس. سيكون حبه كله لك حتى إذا وجد صعوبة في الاعتراف بذلك.

أخذت إيفي نفساً حاداً: «سأرتدي ملابسي بأسرع ما يمكن».

في الخارج، وقفت سيارة جاستين وسائقه بأمر من هوب، كما خمّنت إيفي.

في طريق العودة إلى لندن، راحت إيفي تفكر متأملة في ما أمضته من حياتها وهي تتجنّب الالتزام. وها هي الآن تهرع نحو التزام عميق إلى حدّ مرعب، لكنه ليس مرعباً بقدر تمضية ما تبقّى من عمرها من دونه.

عندما وصلتا إلى منزل جاستين، بعد رحلة استغرقت ساعات، دخلت هوب مستخدمة مفتاحاً لعلها استولت عليه أيضاً. كان السكون يسود في المكان، وظنت إيفي في بادىء الأمر أن المنزل خالٍ، لكنها رأته في الحديقة الكبيرة، بعيداً تحت الأشجار، في الضوء الذاوي، فراحت تركض.

رفع رأسه ورآها تسرع نحوه فجمد مكانه. توقّعت منه أن يدير ظهره وأن ينبذها، إلاّ أنه فتح ذراعيه في اللحظة الأخيرة. وعندما ارتمت بينهما أطبق

عليها بقوة.

لكنه قال: «ارحلي يا إيفي. لا تفعلي هذا».

ورغم كلامه هذا شدّها إليه أكثر وأكثر.

قالت: «اصمت. لا أريد أن أسمع المزيد. لن تتخلص مني مجدداً بالكلام. أنا باقية هنا، أتسمعني؟».

عبس وقال: «سأفطر قلبك. ألا تعلمين هذا؟».

- نعم، وقد أفطر قلبك أنا أيضاً. وإن يكن؟ فالقلوب تنفطر وتُشفى. لكن، إذا ما افترقنا مجدداً فسينفطر قلبي ولن يشفى أبداً.

أسكتته عن الرد بعناق جمع القوة والتصميم والشغف، فبدأت الرسالة تصله أخيراً. القرار لم يعد قراره. لقد أمسكت بزمام الأمور، وفرضت إرادتها عليه، وجلّ ما عليه أن يفعله هو أن يستسلم بسلام وفرح.

تراجعت إلى الخلف وأخذت وجهه بين يديها. أشهر الألم والكرب التي مرت عليه تركته نحيلاً ومنهكاً. قالت: «أتيت لأبقى، هل تفهم هذا؟ لا مزيد من الحماقات؛ سوف نتزوج».

هزّ رأسه وهو يبتسم ابتسامة باهتة ثم حذّرها: «إذا رضيت بي، فسيكون هذا التزاماً مدى الحياة، من النوع الذي لطالما تجنّبته».

- دع القلق على هذه المسألة لي.

- إيفي، اسمعيني! إذا ما تزوّجنا فلن أدعك ترحلين أبداً. سأكون غيوراً، متطلباً، متملكاً، أنانياً وغير عقلاني...

فقالت وهي تضحك لاهثة: «فهمت، سأكتفي بركلك».

- احذري! اتركيني قبل أن يفوت الأوان.

- أيها المجنون، لقد فات الأوان منذ زمن بعيد، لكننا لم ندرك هذا وحسب.

وعانقته بلطف قبل أن تضيف: «لا بأس... لا بأس...».

عندئذ، استسلم وأسند رأسه إلى كتفها وهو يصدر صوتاً أشبه بالنشيج. ضمته إلى صدرها، وهدّأته بصمت. وعندما رفع بصره إلى الأعلى، رأى هوب تقف في الظلام، فسألها: «هل أنت من فعل هذا؟».

أومأت إيجاباً.

- شكراً... يا أمي.

وتباطأ صوته على الكلمة الأخيرة.

ابتسمت هوب ابتسامة رضى وابتعدت حتى غابت بين الأشجار. يمكنهما الآن أن يتدبّرا أمورهما من دونها، كما أنّ لديها حفلة زفاف لتخطط لها.

لم ير الاثنان الواقفان في الحديقة هوب تبتعد، فقد وضعا قدميهما على درب طويلة، موجعة ومتعبة، درب تتخللها المرارة فضلاً عن السعادة. لكن الفرح سيبقى هناك ليضفي حلاوة على الصعوبات. وسيسيران معاً من دون عودة إلى الوراء.

www.elromancia.com